المقالة الثالثة

أدب أبي العلاء

تدل المقالة الاولى على ان الحياة العامة في عصر ابي العلاء لم تكن شيئاً تطمئن اليه النفس ، أو يرضي به الرجل الحكيم لفساد ما كان فيها من سياسة وخلق ، ومن تقسيم ثروة وتأثير دين . وتدل المقالة الثانية على ان الحياة الخاصة لابي العلاء لم تكن خيراً من الحياة العامة ، فقد مزجت بألوان من المصائب وعثور الجد ، وعلى ان الرجل قد أحسن الدرس ، واجاد التعلم ، ورحل الى مدن مختلفة ، وأقام في بيئات متباينة ، وكان له قلب ذكي ، وأنف حمي ، وبصيرة ثاقبة ، وذوق سليم . فهذه المؤثرات كلها قد اشتركت في تأليف التراث الادبي لابي العلاء . فاذا وصفنا هذا التراث ، كان من الحق علينا ان نحلله الى عناصره ، ونرده الى مصادره . ونحن فاعلون ان شاء الله مع حرصنا على الايجاز ، والاقتصاد

لابي العلاء شعر ونثر ، وقد كان يعتقد انه شاعر ، كما كان يعتقد انه كاتب . ولا شك في انه قد نظم كثيراً من الشعر ، وان ماضاع من نظمه أكثر مما بقي ، فانه بدأ يعاني صناعة القريض في الحادية

عشرة من عمره ، وقد نيف على الثمانين وما ترك القريض ، وما أعرض عنه. فمن المعقول ان ينتج هذا العمر الطويل والعمل الكثير شعراً كثيراً. على انه يحدثنا عن نظم قد ضاع ، ولم يصل الينا منه شيء ، فقد ذكر ان كتابه المعروف باسم (استغفر واستغفري) يشتمل على عشرة آلاف بيت. ونحن لا نعرف من هذا الكتاب الا اسمه ويحدثنا ناصري خسرو في رحلته : ان أبا العلاء قد نظم من الشعر مائة الف بيت ، وذلك في سنة ثمان وعشرين واربعمائة : أي قبل موت الشاعر بعشرين سنة . ولا ريب انه قد نظم بعد ذلك الشيء الكثير . ومع ذلك فليس لدينا من نظمه الآن الا شيء لا يقاس الى ما يروى التاريخ من كثرة نظمه . والامر في نثره كالامر في شعره ، بل هو أشد غرابة ، وادعى الى العجب ، فانا لا نجد من نثره الا رسالة الغفران ، ورسالة الملائكة ، وطائفة من صغار الرسائل . فاذا سألنا التاريخ عما كتب أبو العلاء ، أنبأنا بالشيء الكثير ، فان ديوان رسائله الخاصة ، كان ثمانمائة كراسة ، كما يحدثنا أبو العلاء نفسه . فلو فرضنا الكراسة كما فرضها مرجليوث ورقتين اثنتين ، لكانت رسائله ستمائة والف ورقة : أي مائتين وثلاثة آلاف صفحة ، مع ان المطبوع منها بالشام لا يتجاوز مع شرحه ستاً وثلاثين ومائة صفحة فأين ذهب سائرها ؟ سؤال يستعجم التاريخ عن جوابه ، ويعجز الزمان

عن بيانه . على ان لابي العلاء كتباً أدبية ذهبت جملة ، ولم يعرف التاريخ الا اسماءها ، ككتاب الصاهل والشاحج ، وكتاب تاج الحرة ، وكتاب الفصول والغايات ، وغيرها من الكتب التي لا نشك في انها كانت تعيننا على فهم القيمة الكتابية لابي العلاء ، لو سمح بها الزمان . على انا لم نبدأ هذه المقالة لنأسف على مافات ، بل أردنا بها أن نصف مافي أيدينا ، فلندع ذكر مالا سبيل اليه ، ولنبحث عما هو موجود

شعره

١

ليس لدينا من شعر أبي العلاء الا ثلاثة دواوين : أولها سقط الزند ، والمشهور انه يشتمل على شعره ايام الشباب ، وان كان ذلك موضع بحث فانا نجد فيه قصائد نظمت في بغداد ، وبعد رجوعه الى المعرة ، بل نجد قصيدة نظمت سنة أربع عشرة واربعمائة ، وهي الطائية التي بعثها الى خازن دار العلم ببغداد . وانما نعين لها هذا التاريخ ، لان فيها ذكر الفتنة التي اذكاها بالشام صالح بن مرداس ليملك حلب وحسان بن مفرج ليملك الرملة ، وسنان بن عليان ليملك دمشق ، وقد قدمنا تاريخ ذلك كله في المقالة الاولى . فهذه القصيدة قد نظمها أبو العلاء وله خمسون سنة . ومن الظاهر ان ليست هذه بسن الشباب

غير ان ابا العلاء نفسه هو الذي حدثنا : بأن سقط الزند يشتمل على أشعار نظمت في أيام الصبا ، وهو انما خبرنا بذلك في ثبت كتبه الذي لا نشك في انه وضع بعد سنة اربعين واربعمائة ، فلا شك في ان ابا العلاء انما لاحظ ان شعر الشباب في سقط الزند ، أكثر من شعر الكهولة والشيخوخة ، فحكم عليه هذا الحكم ولعل الكتاب قد جمع بعد رجوع أبي العلاء من بغداد ، ثم زيد عليه ماجد من الشعر

الثاني الدرعيات ، وهو ديوان صغير ، يشتمل على اشعار وصفت فيها الدرع خاصة ، وقد طبع بمصر ملحقاً بسقط الزند ، ونص في ثبت الكتب على انه كتاب مستقل الحق بسقط الزند . ولقد حاولنا ان نعلل عناية ابى العلاء بالدروع خاصة ، فلم نستطع ان نفهم لذلك سبباً ، الا ان يكون قد حفظ في وصف الدرع شيئاً كثيراً فاراد ان يظهر مقدرته الفنية بوضع ديوان لها خاصة . وليس من البعيد ان تكون بين الدرعيات وبين هذا القانون الصارم الذي أخذ به نفسه ، واتقى به الالم والجزع صلة ما ، ولكن ذلك على ما فيه من تكلف يحتاج الى النص التاريخى على ان الدرعيات لم تنظم الا في الطور الثالث من حياته ، وذلك مالم نوفق اليه

الثالث اللزوميات ، وهى اكبر الدواوين الثلاثة ، وأجلها خطراً ، نظمت كلها في الطور الثالث ، فمثلت حياة عقله ، ووجدانه

وخلقه أحسن تمثيل . ونحن واصفون كل ديوان من هذه الدواوين الثلاثة على حدة ، ثم نتبع ذلك بكلمة عامة فى منزلة أبى العلاء من الشعر ، ومكانته من نظم القريض

سقط الزند

٢

أبو العلاء هو الذي رتب سقط الزند كما أنه الذي رتب اللزوميات والدرعيات والرسائل . وقد كان الرجل على كلامه شديد الحرص وبآثاره عظيم العناية ، كأنه كان يخشي أن يكون بغض الناس له ، وشكهم في دينه ، حائلا بينهم وبين جمع كلامه وتدوينه . ولكنه لم يرتب سقط الزند ولا غيره من كتبه ترتيباً تاريخياً ولا فنياً ، فخلط المدح ، والوصف ، والنسيب ، والرثاء ، ولم يعين تواريخ القصائد ، ولا مواقيتها . ولكنا مقسمون شعره في سقط الزند باعتبارين مختلفين : احدهما باعتبار التاريخ والآخر باعتبار الموضوع

التقسيم الاول

٣

نظم أبو العلاء شعره منذ بلغ الحادية عشرة ، وبقي ينظمه الى أن مات . واذ كنا قد جعلنا حياته أطواراً ثلاثة : أحدهما طور الصبا وينتهي سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة حين بلغ العشرين ، والثاني طور

الشبيبة ، وينتهي سنة اربعمائة حين عاد من بغداد ، واعترف بانقضاء شبيبته في رسالته الى اهل المعرة، والثالث طور الكهولة، والشيخوخة وينتهي بموته . فلا بد من أن ينقسم شعره الى هذه الاطوار ولئن كان تعيين التاريخ لقصائده كلها في سقط الزند يحتاج الى كثير من العناء ، فان سقط الزند نفسه، قد عين لنا تاريخ قصائد بعينها ، نستطيع ان ندرسها ، فنعرف منها تأثر شعر الرجل بما اختلف عليه من أطوار الحياة . فمن شعره في الطور الاول رثاؤه لابيه لانه نظمه في الرابعة عشرة من عمره ، ومن شعره في الطور الثاني ما كتبه الى ابي حامد الاسفراييني ، وما تشوق به الى المعرة وهو بالكرخ ، ومارثى به أبا الشريفين . الرضي والمرتضي ، وما ودع به بغداد ، وما بكى به على أمه ، ومن شعره في الطور الثالث ما كتبه الى البغداديين بعد رجوعه من العراق وفيه قصيدة نظمت سنة أربع عشرة وأربعمائة ، وهي الطائية التي بعث بها الى خازن دار العلم ببغداد ، وقدمنا الاشارة اليها أكثر من مرة

ولقد كنا نود ان ندرس هذه القصائد درساً مفصلا حتى تكون أحكامنا على الرجل ظاهرة الادلة واضحة البراهين ، ولكن ذلك شيء يطول به القول، ويخرج من القصد. وقد قدمنا في المقالة الثانية وصف رثائه لابيه وقصيدته الى الاسفراييني. وحسبنا أن نسطر هنا نتائج درسنا المفصل .

٤

فأما شعره في طور الحداثة فتكثر فيه المبالغة ، ويظهر فيه التكلف ، وتنقصه متانة اللفظ ، ورصانة الاسلوب ، واتقان المعنى ولا يكاد الباحث يتوسمه ، حتي يرى فيه سذاجة الطفل ، وعبث الوليد . وحسبك ان تنظر الى قوله في رثاء أبيه

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن
فلا جادنى الا عبوس من الدجن

وترجع الى ماقدمناه من نقده

والتقليد في شعر الحداثة ظاهر ، والحرص على المحاكاة واضح والكلف بأظهار التفوق والنبوغ يعلن نفسه الي الناس . لذلك لايكاد يخطر له الخاطر القيم حتى يذهب التكلف بقيمته. فان أردت الدليل على ذلك فانظر الى قوله :

ونادبة في مسمعي كل قينة تغرد باللحن البرىء من اللحن

فهذا المعني فى نفسه جميل ظريف ، ولكنه في هذا البيت ىء لم ينضج ، وقد شانه هذا الجناس المتكلف ، والبديع المتعمل. فانظر اليه حين نضج عقله ، واشتدت مرته : كيف أدى هذا المعني نفسه فى أعذب لفظ ، وأجمل صورة ، وأصفي أسلوب ، فقال

أ بكت تلكم الحمامة أم غنـ ـت على فرع غصنها المياد

ألم تر الى هذا الاستفهام : كيف يعلن الشك ، ويخفي اليقين ؟ وكيف ينم على استهزاء الشاعر بالحياة ، ويأسه من الصفو ؟ وكيف يمثل قدرته على اختراع الصور ، وحسن التعريض ؟ ما باله في هذا البيت قد شك في تغريد الحمامة ، فلم يدر أبكاء هو أم غناء ! وقد كان يجزم في البيت الاول بأن غناء القينة بكاء ، وترنمها اعوال . أليس ذلك لان المعني قد نضج في نفسه ، حتى ثبت عليه اعتقاده ، وحتى بسط سلطانه علي الحيوان ، بعد أن مد ظله علي الانسان ثم انظر كيف وقف الحمامة على الغصن الميـاد ، فى الروضة النضرة ذات الزهر المبتسم ، والنور المؤتلق ، ثم ظن بألحانها الظنون في حال مايشك الناس في انها حال جذل وطرب ، وآية بشر وابتهاج

هذا يمثل لك طفولة شعر ابى العلاء في رثاء أبيه ، وا كتهاله في رثاء ابى حمزة الفقيه الحنفى . وسنبين رأينا فى هذه القصيدة حين نعرض لها

شعره فى الطور الثانى

٥

فاما شعره في الطور الثانى فتكاد تغلب عليه المبالغة ، ولكن حظه من التكلف ينقص ، وقسطه من المتانة يزيد ، وتمثيله لعواطف الشاعر يصح ، فاذا جاوز الخامسة والثلاثين ورأيناه يغداد بدأنا

نودع المبالغة في شعره ، ونستقبل الاقتصاد في اللفظ ،والمعني جميعاً ورأينا ظاهرة ينبسط ظلها على شعر الرجل ،وهى التجمل بالاصطلاحات العلمية . الم تر الي افتنانه في استعارة الاصلاحات الفقهية حين خاطب الفقيه الشافعى فقال

ورب ظهر وصلناها على عجل ... بعصرها في بعيد الورد لماع
بضربتين لظهر الوجه واحدة ... وللذراعين أخرى ذات اسراع
وكم قصرنا صلاة غير نافلة ... في مهمه كصلاة الكسف شعشاع
وما جهرنا ولم يصدح مؤذننا ... من خوف كل طويل الرمح خداع
في معشر كجمار الرمي أجمعها ... ليلا وفي الصبح القيها الى القاع

أولم تر اليه: كيف احسن استعارة الاصطلاحات حين ودع أهل بغداد فقال :

فدونكم خفض الحياة فاننا ... نصبنا المطايا في الفلاة على القطع

فانظر الى هذا البيت : كيف جمع الى التظرف باصطلاحات العلم دلالة على الحسرة بفراق بغداد! وحب الخير لاهلها في أحسن لفظ وأرق أسلوب ،ثم انظر الى مطلع هذه القصيدة : كيف استعار فيه الاستعارات الدينية ، ودل به على التوله والتفجع فقال :

نبي من الغربان ليس على شرع ... ينبئنا أن الشعوب الى صدع
أصدقه في مرية وقد امترت ... صحابة موسي بعد آياته التسع

فهذان البيتان يمثلان عقله ووجدانه معاً ، ثم يمثلان مع ذلك ماورث من آداب الجاهلية وما حفظ من علوم الاسلام . وانظر الى قوله يتشوق الى المعرة :

فيابرق ليس الكرخ داري وانما رماني اليها الدهر منذ ليالي

وقوله فى قصيدة أخرى :

اذا سألت بغداد عني وأهلها فأني عن أهل العواصم سآل

كيف يمثلان حنين الشاعر الي بلده ، وكلفه بوطنه القديم.

في هذا الطور نظم أبو العلاء أكثر مايشتمل عليه سقط الزند من الشعر ، ولا سيما المدح الذى لم يقصد به الا تمرين القريحة ، كما قال في المقدمة . وانما نحكم هذا الحكم ، لانا نجد في هذا الشعر متانة قصر عنها شعره الاول ، ومبالغة جل عنها شعره الثالث ومعاني لا تلائم ناشئاً يغرزم[1] ، ولا توافق فيلسوفاً يتجنب الكذب والمين ، ويعرض عن المني والآمال . فمن ذلك قوله فى القصيدة الاولى من سقط الزند يصف برق المعرة

سرى برق المعرة بعد وهن فبات يرامة يصف الكلالا

شجا ركبا وافراساً وابلا وزاد فكاد ان يشجو الرحالا

وقوله يصف السيف :

---

(١) الغرزمة الابتداء بقول الشعر

يذيب الرعب منه كل عضب فلولا الغمد يمسكه لسالا

فانظر كيف انتهت به المبالغة الي الاحالة ، فزعم أن البرق كاد يشجو الرحال ، وان الخوف يذيب السيوف في اغمادها ، حتي لولم تكن مغمدة لسالت . وفي هذا البيت مبالغة من وجهين : أحدهما وصفها بالرعب ، والآخر وصفها بالذوب . وفيه قصور لا يغتفر ، فقد كان من الحق عليه حين عمد الى المبالغة أن يرعى عهدها ، ولا يميل بها الى الاخلال . ولكنه زعم أن السيوف يذيبها الرعب وهى في الاغماد ، ولولاها لسالت ؛ فما عسى أن تكون حالها ، اذا جردت نصالها ؟ ألعلها تسيل حتي لا يبقى في أيدى أصحابها الا مقابضها ؟ فان كان ذلك فهى الاحالة المنكرة ، والتقصير القبيح ، اذ يجب أن يكون بين الرعب تحسه السيوف في الاغماد ، والرعب تحسه مجردة فرق عظيم . ولعله كان يجب ان تستحيل في هذه الحالة الى بخار ، فان زعم أنها ان لقيته مجردة لم يصبها شيء فهو الاخلال الذي لا مزيد عليه. والمبالغة في شعر هذا الطور كثيرة لا يحصيها العد .

في هذا الطور أيضاً عبثت الضرورات بشعر أبي العلاء فوقع فيه بعض الخطأ النحوي فانظر اليه ، كيف سكن لام الفعل مع ان ، في قوله : فكاد ان يشجو الرحالا ، وكيف وضع ان بعد كاد ؟ فان زعم منتصر له ان ذلك في كلام العرب قليل ، وان لابي العلاء وجهاً

من التأول ، قلنا : إن ابا العلاء نفسه ، قد كان ابغض الناس لحكم الضرورة في الشعر ، كما ترى عند الكلام على رسائله

وفي هذا الطور نسب أبو العلاء ، وتغزل ، وافتخر ، لانه في الطور الثالث لم يمل الى هذين الفنين . وفي هذا الطور أيضاً وصف الاشياء المختلفة . وسنحكم على هذه الابواب عند الكلام على ماطرق من الفنون

شعره في الطور الثالث

٦

كان القانون الصارم الذي اتخذه ابو العلاء لنفسه بعد رجوعه من بغداد مؤثراً أشد التأثير في أطوار حياته . فقد صبغه بصبغة التشدد في كل شيء ، وكلفه التزام مالا يلزم في أعماله العقلية ، وحياته المادية على السواء . فتأثر شعره بهذا القانون تأثراً ظاهراً ، فامتنعت منه المبالغة ، لان الحرص على الصدق ، يحول بينه وبينها ، وامتنعت منه الضرورات ، لان التشدد في الحياة ، كلفه التشدد في التماس الاجادة ، ورأيناه يلتزم القوافي الصعبة ، فيطيل فيها من غير ان يظهر عليه ملل أو سأم ، ومن غير ان يصيبه ضعف أو خور . وحسبك بالتائية التي بعث بها الى ابي القاسم التنوخي ، والطائية التي بعث بها الى خازن دار العلم ببغداد دليلا على ما كان يأخذ به نفسه في الشعر

من التشدد في ايثار القافية الصعبة ، وكذلك رأيناه يتشدد فى محاكاة المتقدمين من العرب ، فيؤثر الالفاظ البدوية الجزلة،والمعاني البدوية الفخمة ، ولا يتحضر فى شعره الا اذا اضطر الى ذلك اضطراراً ، فهو اذا كتب الى خازن دار العلم ببغداد ابتدأ قصيدته على طريقة اهل البادية فقال

لن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا يظلهم ما ظل ينبته الخط
رجوت لهم ان يقربوا فتباعدوا والا يشطوا فى المزار فقد شطوا
يمانون أحياناً شآمون تارة يعالون عن غور العراق لينحطوا
بنازلة سقط العقيق بمثلها دعا دمع الكندى في الدمن السقط

فانظر اليه ، الست ترى منه في مرآة هذا الشعر اعرابياً في طمريه ، يحدو بلفظه الجزل ناقة طرفة بن العبد التي يقول فيها :

أمون على ظهر الاران نصأتها على لاحب كأنه ظهر برجد

بل لم يكف أبا العلاء أن يتخير من الالفاظ مالم يألف أهل عصره ، حتى استعمل غريب اللغة ونادرها ، فوضع أنطى في أول القصيدة موضع اعطى ، وهي لغة قضاعية قرىء بها في القرآن . على ان بداوة أبى العلاء لم تمنعه من اصطناع البديع ، فقد استعمل الجناس في البيت الاول الذي آثر فيه غريب اللغة ، فقال :

«يظلهم ماظل ينبته الخط» ولقد كان عهدنا بالبديع حضريا

مهلهلا ، فاذا نحن نراه فى شعر ابي العلاء الآن بدوياً جزلاً . وكان الناس ولا يزالون يعجبون بقول أبي الطيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

فاذا نحن نرى فيها الآن حسناً جلبه أبو العلاء ، فاحسن تقديره وأقره في نصابه. ثم انظر الى الطباق في قوله :

« يعالون عن غور العراق لينحطوا » كيف احسن الملاءمة بينه وبين هذا الاسلوب البدوي الجميل . ثم لم يزل يصف الشام والجزيرة وما فيهما : من فتن سياسية وصفاً بدوياً ، حتى وصل الى بغداد ، ففرغ لخطاب صاحبه . فهذا الحرص الشديد على بداوة اللفظ والاسلوب مع اصطناع البديع وألوان الزينة يمثل لنا شيئين : احدهما تأثير هذا القانون الصارم فى شعره ، حتى باعد بينه وبين شعر العصر الذي قيل فيه ، كما باعد بين الشاعر وبين غيره من معاصريه. والثانى أثر الدرس اللغوي الذي عكف عليه أبو العلاء بعد رجوعه الى المعرة. فقد يخيل الينا ان هذا الدرس نفسه ، هو الذي أوحى اليه باستعمال كلمة أنطى . ولولا انه مر بها بينما كان يفسر بيتا غريباً لما وجدت الى شعره من سبيل . على ان صرامة هذا القانون ، وتأثير هذا الدرس لم يستطيعا أن يقطعا ما بين الرجل وبين عصره من

الصلة في الاسلوب الشعري ، فما زالت تجمعه به أسباب البديع والتظرف بالاصطلاحات العلمية

يكاد التكلف لا يوجد في شعر أبي العلاء لهذا الطور ، الا ان يضطر الى نظم شيء ليس مما يتناوله الشعر . وما نحسب ان ذلك وقع له الا في قوله من القصيدة التي بعث بها الى أبي القاسم التنوخي

سألته قبل يوم السير مبعثه اليك ديوان تيم اللات ماليتا

فانظر: كيف اضطره التكلف الى أن يضع المصدر الميمي موضعاً إن قبله النحو فلن يقبله الذوق . وكيف اضطرته القافية الى جناس هو أشبه بالرطانة وأدني الى التنافر الذي يمجه السمع ، ويثقل به اللسان

أبو العلاء في هذا الطور بدوي اللفظ والاسلوب ، قليل التكلف والمبالغة ، ولكن شعره يمثل شخصه تمثيلا صحيحاً ، بحيث أنك اذا درست حياته ، ثم عرض لك من شعره مالا تعلم أنه له ، لم تشك في أن هذا الشعر يمثل نفس أبي العلاء . ومصدر ذلك ، أن غير أبي العلاء من الشعراء قلما يفكرون في أنفسهم ، أو يعترفون بها ، فهم يفنونها فيما يحاولون أن ينظموا الشعر فيه ، فاذا مدحوا فنيت قوتهم في الممدوح . أما أبو العلاء فقد كان شديد الاعتراف بنفسه كثير التفكير فيها ، لا ينزل عنها ليتقن مدحاً ، أو يحسن وصفاً .

واذ كان محباً ، أو مكرها على ان تظهر نفسه في جميع اعماله، وكانت نفسه ممتازة كما قدمنا ، فلا جرم كان شعره كنفسه ممتازاً أشد الامتياز

أبو العلاء كما مثل شخصيته فى شعره الناضج مثل عواطفه أيضا ، حتى انك لتكاد اذا قرأت البيت من هذا الشعر ، تحلله الى تلك العواطف التي ائتلف منها تحليلا دقيقاً من غير أن يلقاك في كل ذلك كبير عناء . فانظر الى قوله :

أثارنى عنكم أمران والدة لم ألقها وفراء عاد مسفوتا

وابحث عما يؤلفه : من العواطف تجد أنه يأتلف من عواطف ثلاث : الاولى حزنه على بغداد ، والثانية حزنه على فقد والدته ، وأنه لم يوفق الى لقائها ، والثالثة تألمه من الفقر ! وقلة المال . فاذا شئت ان ترد هذه العواطف الثلاث الى أصولها التي كونتها ، وعللها التي اشتركت فيها ، رأيته انما يحزن على بغداد ، لانه فارق فيها ما كان يهوى : من دور العلم ، ومجالس المناظرة ، ومن كان يحب : من الاصدقاء والاصفياء ، وما كان يؤمل : من الثروة وحسن الحال، ثم ما اضطر اليه : من الفشل والرجوع الى حيث لا يحب أن يكون . وانما يحزن على فقد والدته ، لانه يذكر فيها برها به ، وعطفها عليه ، ومعونتها له على حوادث الزمان ، وانه فقد منها نصيراً كان يغنى عنه غير قليل وانما يألم من الفقر ، لانه هو الذي قص جناحه ، وقصر باعه، وحال

بينه وبين مايريد ، وجعل موقفه من آماله ، موقف من تغريه الرغبة ويثنيه العجز . فاذا سألت التاريخ عن هذا البيت : أصادق هو فيما يصف من أمر صاحبه ؟ أنبأك ! بأنه صادق من غير ريب ، ثم اذا سألت قواعد الفن عن هذا البيت : امستجمع هو لشرائط الشعر ؟ حدثتك : بأنه لا ينقصه منها شيء ، لانه يستطيع أن يبلغ من القلب الحساس موضع التأثير ، وان لم يستعن على ذلك بالخيال . لقد ذكرنا لفظ الخيال ، فمن الحق علينا أن نبين أن عمل الخيال قليل في هذا الطور من أطوار ابي العلاء . وذلك واضح اذا لاحظنا أنه لم يكن يحيا حياة شاعر ! بل حياة فيلسوف ، فليس الخيال هو الذي يمد شاعريته في هذا الطور ، وانما هي حياة كانت في نفسها شاعرة ، تأتلف من أطوار مؤثرة في كل قلب رقيق

التقسيم الثاني لسقط الزند

١

الآن نقسم سقط الزند باعتبار ما يشتمل عليه : من الفنون ، بعد ان قسمناه باعتبار ما اختلف على صاحبه : من الاطوار . يشتمل سقط الزند على المدح ، والفخر ، والوصف ، والرثاء ، والنسيب ، وليس فيه من الهجاء شيء ، ولم يتعرض لوصف الخمر ، ولا الصيد ، ولا الغلمان ، وليس فيه من فن الحكمة ، والحماسة ، الا ما يمكن ان

يلم به في طريقه الى المدح ، او الفخر ، أو النسيب . وهذا واضح ، فان حياة أبي العلاء لم تكن حياة لهو ولعب ، فيصف الخمر والغلمان. وكان ذهاب بصره حائلاً بينه وبين الصيد ، والحرب . فلم يكن من المعقول ان ينظم في هذه الفنون قصائد خاصة . فأما الحكمة ، فقد خصص لها أكثر من كتاب . ولذلك لم يودع سقط الزند من قصائده الخلقية شيئاً . ونحن باحثون عن هذه الفنون فناً فناً ، حتى يكون البحث مفصلاً مستوفي ، وحتى نفهم أبا العلاء في آدابه ، كما فهمناه في حياته

المدح

٢

أكثر سقط الزند انما يأتلف من المدائح ، ولكنا مضطرون الى ان نقسم هذه المدائح قسمين : الاول قصائد انشأها ابتداء وقصد بها الى شخص خيالي أو موجود . وهذه القصائد هي التي يصح ان نبحث عنها : أكانت تنظم لنيل الصلات ؟ واذ كان أبو العلاء قد حدثنا في مقدمة كتابه : انه لم يتكسب بشعره ، فقد أراحنا من البحث ، لانه عندنا صادق مأمون . الثاني قصائد لم ينظمها الا ليجيب بها شاعراً مدحه ، أو صديقاً كتب اليه ، وبين هذين النوعين من المدح فرق ظاهر .

ذلك ان النوع الاول تكثر فيه المبالغات ، ويفهم فيه أثر الخيال ،

لان الشاعر لا يريد به الا اتقان الصناعة الفنية كما يفهمها ، ثم هو لا يخشى ان يرمي بالغلو ، أو التقصير بالقياس الى شخص الممدوح ، لانه في أكثر لاحيان شخص مخترع ، ثم هو لا يتشدد في اتقاء الضرورات الشعرية في هذا النوع ، لانه لا يخشي ان يلقاه ممدوحه بنقد أو انكار ، بخلاف النوع الثاني ، فانه تقل فيه المبالغات قلة ظاهرة وربما خلت منها القصيدة خلواً تاماً . وأكثر ما يكون ذلك في كتبه الى اصحابه ببغداد ؛ ثم هو يتقى الضرورات الشعرية في هذا النوع ما استطاع ، لانه يحرص على ألا تكون قصيدته اقل من قصيدة صاحبه الذي يجيبه . والنوع الاول لا يمثل عواطف خاصة لان اكثره منتحل متكلف ، والنوع الثاني يمثل ما يجد الشاعر : من عواطف الاخاء والاخلاص ، ومن الحنين والشوق ، ومن الحزن والأسى ، ومن الاعظام والاكبار ، لانه لم ينظمه في اكثر الاحيان الا متأثراً بشيء من هذه العواطف التى تكون بين الاصدقاء . والفرق ظاهر بين شعر نظمته الصناعة وحدها ، وشعر اشترك القلب في نظمه وتأليفه . والنوع الاول يقع كله في طور الشبيبة ، والنوع الثاني يقع اكثره في طور العزلة . وتعليل ذلك ميسور ، فان الرجل في شبيبته قد كان فارغاً لعبث الخيال ، فأما في عزلته فقد شغل عن ذلك ، وربما كانت اولى سقط الزند ، اجمل قصائد النوع الاول ، ومطلعها .

أعن وخد القلاص كشفت حالا ومن عند الظلام طلبت مالا

أما النوع الثاني فاكثره جيد . وأظهره تائيته التي بعث بها الي أبي القاسم التنوخي ، وطائيته التي بعث بها الى خازن دارالعلم ببغداد ، وعينيته التي بعث بها الى عبدالسلام بن الحسين البصري ، ودالية التي بعث بها الى خاله ابى القاسم ، ونونيته التى بعث بها الى الشريف أبي ابراهيم موسى بن سحاق . ولقد كنا نود أن نصف هذه القصائد كلها ونظهر القاريء على دقائقها لولاأن هذايضطرنا الى اطالة ليست في موضوع الكتاب ، فان الوصف المفصل لقصائد ابي العلاء ، يحتاج الى كتاب خاص . على أنا مضطرون الى أن نصف هذه النونية لمزايا اختصت بها ، ولكنا نرجيء ذلك الى ما بعد الكلام عن الوصف لان الوصف والمدح يشتركان فيها اشتراكا تاماً

الفخر

٣

ليس في سقط الزند من الفخر شيء كثير ، وانما هى قصائد قليلة ، أنبلها اثنتان أولاهما الهمزية التى مطلعها :

ورأيي أمام والامام وراء اذا أنا لم تكبرني الكبراء

وثانيتهما اللامية التي مطلعها :

الا في سبيل المجد ماأنا فاعل عفاف واقدام وحزم ونائل

فأما أولاهما فقد خيل الشاعر فيها انه يخاطب شخصاً بعينه ، فقال :

تساور فحل الشعر او ليث غابه سفاهاً وأنت الناقة العشراء

وفيها للهجاء ظل ضئيل اذ يقول :

ومذ قال ان ابن اللئيمة شاعر ذوو الجهل مات الشعر والشعراء

وليس في القصيدة كبير معني ، انما يفتخر الشاعر بنفسه وعزتها وأمانيه وسعتها ، وقومه وسلطانهم علي الشعر ، واستيلائهم على الارض ، وغناهم عن الناس ، وافتقار الناس الى ما عندهم من معروف

وأما الثانية فللحكمة والمثل منها حظ موفور ، وللمبالغة والغلو فيها قسط عظيم ، ولم يتجاوز الشاعر بها الكلام عن نفسه ، والتمدح بكرم خلقه ، وبعد همه . والحق ان طبيعة ابي العلاء ، لم تكن طبيعة الرجل الفخور ، لان الفخور يحتاج الى طائفة من الاخلاق لم يكن لأبي العلاء فيها حظ . فهو يحتاج الي القدرة على المين ، والدفاع عنه ، والى اكبار الصغير من أمره ، واصغار الكبير من أمر غيره ، والى شيء من الصفاقة يحول بينه وبين تأثير الحياء ، ويمكنه من ان يلقى الناس بأكاذيبه ، وكانه صادق برّ ، ولا سيما اذا لم يكن في حياته وحياة

قومه ما يطلق لسانه بالفخر وقد قدمنا ان خلق الحياء قد كان أقوى الاخلاق سلطاناً على نفس ابي العلاء ، فليس له الى ان يغلو في اعلان المين سبيل . ومما لا شك فيه ان ابا العلاء لم يفتخر الا في الطور الثاني ، والاول من حياته . فأما الطور الثالث فقد شغلته الفلسفة فيه عن الفخر . والفخر أشد المعاني مناقضة للفلسفه ، ومضادة للحكمة . وكيف يفتخر بزينة الحياة رجل كان يرى الحياة شراً محتوماً ، ويري الخير كله في الفناء ؟

الوصف

٤

مثل أبي العلاء لا يتقن من الوصف ما يحتاج الى الابصار ، وانما يتقن وصف ما يحيط به علمه من غير المبصرات ، فان تناول الاشياء المبصرة ، فوصفها وفصل اجزاءها ، وحدودها فليس يخلو من احدى اثنتين : إما ان يكون عيالا على غيره من الوصاف المبصرين ، فيأخذ عنهم ما قالوا ، وينفخ فيه من نظمه روحا خاصاً . وليس هو في هذه الحال واصفاً ، ولا شاعراً ، وانما هو نظام . وإما ان يملكه الغرور ، ويأخذه العجب ، فيتناول الاشياء المبصرة بالوصف ، والتفصيل من غير ان يأتم بغيره ، أو يترسم خطو شاعر آخر . وهو في هذه الحال عرضة الخطأ الشائن ، والسخف الكثير

ذلك ان إجادة الوصف الشعري لشيء من الاشياء تقتضي ان يحدق الشاعر فيما يريد أن يصفه تحديقاً يظهره على دقائقه ، ويرسمها في نفسه رسما يمس عواطفه وخياله، حتى ينطلق لسانه بوصف هذا الشيء نقلا عما تركت صورته في خياله وقلبه من الشكل المفصل ، والتأثير الشديد . ومن الواضح ان ضريراً كأبي العلاء ليس له إلى ذلك سبيل . فاذا كانت له اجادة فى الوصف ، فانما هي في وصف الاشياء المعنوية كاللذة ، والألم ، وكالحزن والفرح ، وكألوان القول وفنون الكلام

وقد درسنا ما عرض له أبو العلاء : من الوصف فاذا هو لم يعد هذه الاشياء،واذا هو حين تعرض لوصف المبصرات قد حرص كل الحرص على تقليد الناس فيما قالوه ، ولقد يغتر بعض الباحثين بما يجد في شعره : من وصف النجوم ، ومواقعها وحركاتها ، ومن وصف السيف وروائه ، والفرس واجزائه، ولكنه ان اعجب بذلك، فانما يعجب بشيء ليس لأبي العلاء فيه الا الرواية ، وحسن التنسيق. فهو في الحقيقة يستطرف شيئاً تليداً . ولو انه استطاع ان يدرس من الأدب والعلم مادرس أبو العلاء ، من غير ان يفوته منه شيء ،لكان من اليسير عليه ان يرد هذه الاوصاف المبصرة الى مصادرها . ولقد كنا نود ذلك ، ولكنا لم نوفق الى أكثر مادرس أبو العلاء في

حياته الطويلة ، كما قدمنا في المقالة الثانية . ونحن بعد ذلك نخشى الاطالة ، ونتجنب كثرة التفصيل ، ونرى ان الوصول الى هذا الغرض ، يحتاج الى كتب خاصة تفرد له . على انا نقتنع الآن بالاشارة الى المصادر العامة التي يأخذ منها المكفوفون ما يطرقون . من أوصاف المادة . فأولها ما يقرأون ويستظهرون من الشعر والنثر الذي أنشأه المبصرون ، والثاني ما يرثون من الاساطير القديمة والثالث مايسمعون من أحاديث الناس ، والرابع مايجدون في كتب العلم من خصائص الأشياء

هذه المصادر تشترك في امداد المكفوفين بما تجد في كلامهم من وصف المبصرات . فأبو العلاء اذا وصف النجوم ، فليس يعدو هذه المصادر في وصفه ، ولكن أثر الاساطير في هذا الوصف شديد

ذلك أن الشاعر يحس من نفسه القصور عن أن يبلغ شأو المبصرين في هذا الفن ، فيحتال في أن يعوض شعره من هذا القصور مايزين لفظه ، ويجمل معناه ، وما يصبي اليه النفوس ، ويستهوي اليه الافئدة ولن ترى كالاساطير مؤدياً لهذا الغرض ، وموصلا الي هذه الغاية ، فانها على مالها من جمال الخيال تثير في النفس عاطفة الكلف بالقديم ، والحنين اليه ، ولهذه العاطفة في نفس الانسان أثر غير قليل

وقد آن لنا أن نستدل على هذه القضية بالادلة الظاهرة ، من شعر أبي العلاء . ولسنا نختار لهذا الاستدلال الا نونيته التى أجاب بها الشريف ابا ابراهيم موسي بن اسحاق ، وهي التي وعدنا بوصفها عند الكلام على مالأبي العلاء من المديح

بدأ أبو العلاء هذه القصيدة بقوله

عللانى فان بيض الأماني فنيت والظلام ليس بفاني

فوصف الاماني بالبياض ، لا لانه يعقل هذا اللون ، فقد حدثنا انه لا يعقل من الالوان الا الحمرة ، بل لانه رأى الناس يصفون الجميل بهذا اللون ، ويستبشرون به فيما لهم من النظم ، والنثر ، والحديث . وهو بعد يريد أن يصف أمانيه بالحسن ، وقد حفظ ان الظلام لونه السواد ، فطابق بين هذين اللونين ، وطابق بين فناء الاماني البيض ، وبقاء الظلام الحالك ، اشارة الى اليأس ، وانقطاع الرجاء من لذات الحياة ، وسأل صاحبيه أن يعللاه بما عندهما : من خير ليتلهى عن احتمال هذه الحياة المفعمة باليأس والقنوط ، فكان لهذا الطباق صورة خاصة ، مثلت مافى نفس الشاعر : من عاطفة اليأس من المستقبل ، والأسف على الماضي ، فأثارت هذه الصورة في نفس القارىء عاطفة الرثاء له ، والحزن عليه ، ثم قال

إن تناسيتما وداد أناس فاجعلاني من بعض من تذكران

وليس في هذا البيت من الوصف شيء ، وانما هو تذكير بالعهد، واغراء بالمحافظة عليه ، ثم قال

رب ليل كأنه الصبح في الحسن م وان كان اسود الطيلسان

فشبه الليل بالصبح لا في شيء مادي بل فيما يمتع النفوس به من السرور والاطمئنان ولفعه بطيلسان اسود كثيراً مالفعه به الناس من قبل. ثم قال :

قد ركضنا فيه الى اللهو لما وقف النجم وقفة الحيران

فوقف الثريا موقف الحيران ، وليس في ذلك الا الدلالة على طول الليل، والمطابقة بين الركض والوقوف ، ثم قال فيها

ليلتي هذه عروس من الزنج م عليها قلائد من جمان

وتشبيه الليل بالزنجي والنجوم بالدرر، قديم مطروق، قد اتخذه الشعراء معنى شائعاً يتداولونه ويصرفونه في أغراضهم . فليس لابي العلاء في هذا التشبيه الا جعله الليلة عروساً قد لبست من النجوم قلائد من جمان .

وهذا التشبيه ان حسن وقعه على السمع، وعذبت الفاظه على اللسان، ولم تنب صورته الظاهرة عن الخيال، فهو شديد النبو عن الحقيقة، بعيد مابينه وبينها من الامد . فان ذلك لا يتم الا اذا كان ائتلاف النجوم وانتظامها وموقعها من الليل كائتلاف القلادة وموقعها

من العروس . ومن الظاهر ان الليل ليس كالعروس الا في اللفظ، وان النجوم ليست كالقلادة الا على طرف اللسان . ثم عرض أبو العلاء لوصف المعانى،وهو لوصفهامتقن وللتشبيه فيها مجيدفقال :

هرب النوم عن جفوني فيها هرب الأمن عن فؤاد الجبان

فانظر اليه كيف أحسن التشبيه كل الاحسان،وأجاده أتم الاجادة، وانما وفق الي ذلك حين لازم بين هرب النوم عن جفونه،وبين شيء لم تألف النفس استحضاره اذا استحضرت الارق والسهاد ، وهو هرب الامن عن قلب الجبان . وانما سبيله في ذلك التشبيه سبيل ابن الرومى في التشبيه المادي اذ قال :

ولازوردية تزهو بزرقتها وسط الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت

ذلك ان استحضار الكبريت فى أطراف النار قد كثر وشاع، حتي لم تكبره النفوس ولم يحفل به الخيال . فاذا نظر الناظر الى البنفسج لم يخطر له أن يتخيل في الروضة المونقة ذلك المنظر الذي يألفه فى بيته . فلما الف الشاعر بين هذين المنظرين المفترقين في استحضار النفس أشد الافتراق، وافق هذا التأليف من النفوس استغرابا ، ومن القلوب هوى . وكذلك لزوم الروع قلب الجبان ، أمر كثير الخطور بالبال والجريان على الالسنة : ولكن الناس

لا يذكرونه إذا ذكروا السهر الذي يصيب المحزون لهمّ أو غرام. فلما سبق أبو العلاء الى التأليف بينهما، وقف النفس منهما على غريب غير مألوف. بخلاف قول ابن المعتز في وصف الهلال

أنظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فان الناس اذا استظرفوا هذا التشبيه، أو أعجبوا به فسبيلهم سبيل من يعجب بأمل لن يظفر به، ولن يحصل عليه. ولو قد أتيح له مرآه لاتيحت له به السعادة ونعمة البال. ولعمري ماحدث ابن المعتز نفسه بأن يرى على صفحات دجلة يوماً ما زورقاً من الفضة تثقله حمولة من العنبر. انما تلك أحاديث النائم و خطرفة الخيال، قال أبو العلاء بعد ذلك

وكأن الهلال يهوى الثريا فهما للوداع معتنقان

وليس لهذا البيت من الحسن الا ما يثيره ذكر الهوى والوداع، واعتناق العاشقين. فأما البيت فانما يشير الى اجتماع الهلال والثريا في برج الحمل، كما يقول الشراح. ولعمر أبي العلاء لو اعتنق هذان العاشقان لدهمت الفلك داهمة، ولأصابه الخطب العظيم. قال أبو العلاء بعد هذا

وسهيل كوجنة الحب في اللون م وقلب المحب في الخفقان

فأحد هذين التشبيهين مبصر الطرفين، وفيه تشبيه لون بلون،

والناس يصفون سهيلا بحمرة الضوء . على ان جمال التشبيه انما جاء من لفظ المشبه به لدلالته على ماتهوى النفوس من خدود الحسان . والتشبيه الثاني تشبيه لشيء تبصره العين ، وهو حركة سهيل بشيء آخر تصفه الكتب ويتحدث عنه الشعراء، وهو خفوق القلب وجماله جاء من لفظ المشبه به أيضاً، لما يخيل من شدة اضطراب قلب العاشق وسرعة خفقانه . ثم أخذ يصف سهيلا بما في أحاديث العرب عن مواقع النجوم ووقائعها ، فوقفه موقف الفارس يستعرض خصومه، وجعل حمرته نجيع الدم الذي خضبه به اعداؤه في تلك الحرب الخرافية، وجعل أختيه الشعريين تبكيان عليه. ثم ذكر نجمين خلفه يزعم العرب انهما قدماه . ثم وصف الليل وقد وخطه المشيب بضوء الصباح . وهو قول الفرزدق ،

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

ثم حدثنا باشفاق الليل حين أصابه الشيب، من هجر نجومه التي جعلها غواني حسانا، بعد أن جعلها قبل ذلك قلائد من الجمان . فزعم أن الليل قد ستر مشيبه بتلك الحمرة التي تبدو عند الصبح، وسماها الشاعر زعفرانا . ثم وصف النسر الواقع حين هم متباطئاً بالنفور فزعم أن النهار قد جرد عليه من ضيائه سيفاً فهم بالطيران . ولعمر أبي العلاء لقد كان من حق هذا النسر أن يسرع بالطيران لا أن يهم به ،

ولما فرغ من اساطير الجاهلية عمد الى أساطير الشيعة يتقدم بها الى صاحبه الهاشمي ، فزعم ان هذه الحمرة التى تسبق مطلع الفجر ، وتلحق مغرب الشمس، انما هى شاهدان من دم على وابنه الحسين، قد ثبتا فى قميص الليل، ليستعديا الله على خصومهما يوم الحساب . ومضى بعد ذلك فى المدح وأثنى على صاحبه بما كان للنبي من بلاء فى الغزو وغناء فى الدين، وذكر ما تقوله الشيعة ، من أنه أحد الخمسة الذين هم المقصودون بما فى أنواع الكلام من لفظ ومعنى . ثم ذكر بني هاشم وفضلهم ، وخص الممدوح واولاده بالفضيلة، واعتذر اليه من تقصيره فى اجابته. فلفظ القصيدة رقيق جزل، واسلوبها حلو عذب، ومعانيها مستهوية للقلوب، خلابة للألباب . ولكن حظ الشاعر فيها انما هو حظ الرجل يتخير من الحديقة أحاسن الازهار، فينسق منها طاقة حسنة التنسيق ، ليقدمها الى صديقه، فله التنسيق ولغيره الاختراع والايجاد . ذلك شأن أبى العلاء وغيره من المكفوفين فيما نرى لهم من وصف المبصرات، فاذا عرضوا لوصف المعانى بلغوا من اتقانه ما يشتهون

الرثاء

٥

ليس في سقط الزند من المراثي الا قصائد سبع، رثى الشاعر أمه منها باثنتين، وبكى على أبيه بواحدة، ونعى أبا الشريفين بواحدة أخرى،

واستعبر على أبي حمزة الفقيه بالخامسة، وابن جعفر بن علي بن المهذب بالسادسة، وذكر بالسابعة صديقاً له لم يسمه في الديوان، ولم يدلنا عليه التاريخ .

حياة أبي العلاء المملوءة بالهموم والاحزان ، وفلسفته المفعمة بالسخط على الوجود ومافيه، تعدانه للنبوغ في الرثاء . ولكنه رثي أباه طفلا لم ينضج عقله، ولم تتكون فلسفته ، ولم يظهر نبوغه، ولم تمتز عواطفه، فأخطأته الاجادة . ورثي أمه في آخر الطور الثاني وأول الطور الثالث ، أي في عصر انتقاله من حال الى حال ، واضطراب نفسه بين ماض مؤلم، ومستقبل مظلم، وقبل أن تمتاز فلسفته وتتبين . فخضع لما ألف شعراء العرب أن يخضعوا له من إجادة النظم واتقان الوصف ، من غير أن يحفلوا باظهار العواطف كما هي وتمثيل النفس وأحزانها من غير تكلف ولا تعمل. لذلك كان أبو العلاء في رثاء أمه واصفاً أكثر منه راثيا. أما صديقه المجهول فقد رثاه في طور لانعرفه، ولكن قصيدته في رثائه تخلو من المتانة والحزن معاً . وليس أبو العلاء على أبي الشريفين بأشد حزنا منه على صديقه المجهول . وانما هي قصيدة أنشأتها المجاملة، وأثر فيها حب الاعجاب، فظهر فيها تكلف الحزن وتصنع البكاء . إنما الرثاء الجيد مارثي به أبا حمزة، وجعفر بن علي بن المهذب . فانك لاتكاد تقرأ رثاء ابي حمزة حتي تمثل أبا العلاء

بين يديك ينشدك هذه القصيدة بصوت الحزين المطمئن : صوت يمثل حزنا قد فطر قلب الشاعر وصدع كبده، واطمئنانا قد منعه من اظهار الجزع الذي يذهب بوقار الفيلسوف . نعم وصوت يصدر عن رجل يشترك عقله وقلبه في تأليف مايقول ، فللقلب تمثيل الحزن الشديد ، وللعقل فهم الاشياء كما هي، ودعاء النفوس الى اليأس من آمال الحياة،والصبر على آلامها

نعتقد أن العرب لم ينظموا في جاهليتهم واسلامهم ، ولا في بداوتهم وحضارتهم،قصيدة تبلغ مبلغ هذه القصيدة في حسن الرثاء . تهم ذوقنا وتهم أنفسنا بالتعصب لابي العلاء اشفاقاً على الآداب العربية ألا يكون فيها من الرثاء الجيد مايعدل هذه القصيدة ، ولكنا نضطر بعد الدرس واجادة البحث الى تبرئة أنفسنا من هذه التهمة

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي اذا قيـ ـس بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنـ ـت على فرع غصنها المياد

أي معني أصح وأى لفظ أمتن ! ! أى أسلوب أرق وأي تركيب أرصن ! ! أى معرض يستثير حزن القلوب ويستنزف ماء الشؤون !! أترى ان البكاء يرد مفقوداً، وأن الغناء يحفظ موجوداً،

أليس استيلاء الضعف على نفسك وعبثه بلبك هو الذي يحزنك لصوت الناعي، ويطربك لصوت البشير ؟ أليس الاستبشار بالشيء مقدمة حزن عليه ؟ أرأيت حزنك يعظم على الهالك ان لم يكن حرصك عليه شديداً ، وحبك له موفوراً ، وأنسك بقربه عظيما ؟ أرأيتك لو صدقت نفسك الحديث ، ووطنتها على احتمال الاشياء كما هي ، تجد كبير فرق بين الخير والشر ؟

إن حزناً في ساعة الموت اضعا ف سرور في ساعة الميلاد

أترى أن الشاعر يكذب في ذلك أو يمين ؟

صاح هذي قبورنا تملأ الرحـ ب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ماأظن أديم الار ض الا من هذه الاجساد
سر إن اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالا على رفات العباد
فقبيح بنا وإن قدم العهـ د هوان الآباء والاجداد

أنظر اليه: كيف احسن المزج بين رأيه الفلسفي في انحلال الاجسام الى عناصرها ، وبين ماراذ من البكاء على الهالكين والعزاء للباقين ، والامر بالتواضع والعظة ، والنهي عن الخيلاء والاستكبار. كل ذلك في لفظ لا يطمع الناقد في ان يجد الى نقده سبيلا .

أبنات الهديل اسعدن او عد ن قليل العزاء بالاسعاد
إيه لله دركن فاتنـ م اللواتي يحسن حفظ الوداد

الم تر اليه كيف يئس من وفاء الناس، ومال مع الخيال الى بنات الهديل، فاستعانهن على مصيبته، واستبكاهن لنازلته، وكيف جعل اول هذين البيتين موسيقى اللفظ حين تعرض لنجوى الحمائم؟

كيف أصبحت في مكانك بعدي ياجديراً مني بحسن افتقاد

فانظر كيف تتمثل أحزان الشاعر وعبراته في هذا البيت، وكيف يظهر اشفاقه على صاحبه، وتذكره لعهده القديم ؟

القصيدة كلها من هذا النحو، والاطالة في وصفها ليست من شرط الكتاب . أما رثاؤه لجعفر بن على ابن المهذب فقد غلبت عليه الحكمة، حتى كادت لاتكون الا قصيدة نظمت في فلسفة الموت. وقلما رأيت فيها بيتاً الا وهو يصلح لان يكون مثلا سائراً وحكمة جارية على الالسنة . وعلى الجملة فان اجادة أبي العلاء لفن الرثاء تحصر في هاتين القصيدتين . وعندنا انه قد برز بهما شعراء الرثاء جميعاً في الجاهلية والاسلام

المنسيب

٦

نظلم أبا العلاء إن وصفناه باجادة الغزل . وانما هو رجل ضرير مفجع قد ملكه الزهد وحالت فلسفته بينه وبين لذات الحياة ، فلم يرقص قلبه لموعد وصال، ولم يجب لوشك ارتحال، ولم يسمع من

أحاديث الغيد الحسان، ولا شرب من رهينة الدنان مايطلق لسانه بالنسيب الغريب، والغزل الرقيق. انما هي مقطوعات نظمها نظماً فنياً لامدخل للقلب فيه ولاسبيل للوجدان عليه

الدرعيات

درسنا الدرعيات درساً خاصاً رجاة أن نجد فيها مايبين العلة التي اقتضت كاف أبي العلاء بالدروع، وافراده لها قصائد خاصة. مع أنه لم يسبغها على جسمه قط، اذ كان لم يشهد حرباً ولا قتالا. انما كان جهاد مثله كما يقول الزهد وضبط النفس

أجاهد بالظهارة حين أشتو وذاك جهاد مثلي والرباط

لم ينتج لنا البحث الا ماقدمناه في أول هذه المقالة من الظن الذي لانستطيع أن نجزم به. اذن فليس من حق الدرعيات أن يشتد البحث عنها ويطول القول فيها. وانما الحق لها أن تلحق بما في سقط الزند من الوصف، فانها لاتتجاوز الافتنان في تشبيه الدرع بالغدير مرة، وعين الجراد مرة أخري، وفي ذكر بلائها في تثليم السيوف وتحطيم الارواح وحياطه الدارعين. واللهجة الجاهلية فيها غالبة، والاسلوب البدوي فيها ظاهر، والغريب بين ألفاظها كثير. وربما عمل الخيال في التأليف بين هذه الاوصاف الموروثة عن الجاهليين. فنظم الشاعر محاورة

بين الدرع والسيف ، وأخرى بين غلام وامرأة باعت درع أبيه ، وثالثة عن لسان رجل اضطر فباع درعه ، وهو في كل ذلك لا يزيد على اختراع الأساليب المختلفة لنظم ما حفظ من وصف الشعراء للدروع

اللزوميات

١

غير هذه المقالة أحق بوصف اللزوميات ، لانها الى أن تكون كتاباً فلسفياً أقرب منها الى أن تكون ديواناً شعرياً . وانما نعرض لها الآن لنصفها من الوجهة الادبية وصفاً موجزاً . ولقد عملت اللزوميات عملا غير قليل في تكوين طائفة من الخصائص الادبية لأبي العلاء . وكما أن سقط الزند قد خضع فى نظمه لآرائه الفلسفية فقد خضعت اللزوميات أيضاً لهذه الحياة . الا أن صرامة قانونه الفلسفي تلمس باليد في اللزميات، ويحتاج الباحث الى أن يدل عليها في سقط الزند

٢

لفظ اللزوميات أو لزوم مالا يلزم هو شعار أبي العلاء في جميع أطوار حياته بعد رجوعه من بغداد ، فقد التزم في شعره ونثره وسيرته

أشياء لم يلتزمها من قبل، ولم يكن من الحق عليه التزامها . وانما آثرها حين راض نفسه على تكلف المشقة واحتمال المكروه . فالتزم في اللزوميات أن تكون القافية على حرفين : أى أن يلتزم حرفاً لو أسقطه لما كان متجاوزاً قواعد القافية .

ليس أبو العلاء هو الذي سبق الى اختراع هذا الفن من التكلف، بل قد سبقه اليه كثير في تائيته التي مطلعها

خليليّ هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

وذلك انه التزم اللام الى آخر القصيدة ولو لم يلتزمها لم يلحقه بذلك عيب . ولم يدلنا تاريخ الآداب على أن كثيراً قد التزم هذه اللام تكلفاً أو وقع له التزامها من غير أن يرغب فيه . ومهما يكن من ذلك فكثيّر هو الذي اخترع هذا الفن . ولكن الشعراء لم يعالجوه عليه لما يستتبع من المشقة في النظم، ومن بسط سلطان اللفظ على المعنى . والعجب أن الشعر العربي وحده هو الذي يختص بالتزام قافية واحدة في القصيدة وان طالت . فانظر كيف جاء كثير فأراد أن يضاعف هذه المشقة ويزيد عبئها ثقلا !

أقبل أبو العلاء بعده بثلاثة قرون فالتزم طريقته ونظم عليها ديواناً ضخماً ، وبالغ فى التحرج حتى أخذ نفسه باستيفاء حروف المعجم كافة وما يلحقها من الحركات والسكون ، فلكل حرف

أربعة فصول الا الالف فانها لا تكون الا ساكنة ، فاشتمل الكتاب على ثلاثة عشر فصلا ومائة ضمنها آراءه الفلسفية التي خصصنا لشرحها المقالة الخامسة . هذا التكلف اضطر أبا العلاء الى المبالغة في اصطناع الغريب ليقوم له بما يحتاج اليه من القافية. وقد عابه كثير من الناس بهذا التكلف كابن الاثير في كتاب المثل السائر، والاستاذ الاسكندري في كتابه الذي نثره في تاريخ الآداب العباسيه. وعندنا ان كلا الرجلين لم يوفق في لومه على أبي العلاء، لان أبا العلاء لم يضع هذا الكتاب على أن يكون ديوان شعر، وانما وضعه ليكون كتاباً فلسفياً كما قدمنا . وقد اعترف الرجل نفسه بذلك في مقدمة الكتاب واعتذر مما عسى أن يقع فيه مما لا يوافق أساليب الشعراء، كما اعتذر من ان الكتاب سينقصه الخيال الذي يعتمد عليه جمال الشعر، لانه عاهد نفسه الاّ يضع فيه الا ما يعتقد أنه الحق وانه من الكذب والمين بريء . والحق الخالص قليل الملاءمة لمذاهب الشعر وأهواء الشعراء . على أن التكلف في اللزوميات لم يبلغ من الكثرة مبلغ أن يكون من عيوب الكتاب، وقد كان أبو العلاء كثير الحفظ والاستظهار بصيراً بنقد الشعر . فمن المعقول أن يتجنب العيب والزلل ما استطاع. وذلك هو الذي انتجه لنا الدرس المستقصي لكتاب اللزوميات

٣

لم يرد أبو العلاء أن يظهر في كتاب اللزوميات مقدرته اللغوية وبراعته في قرض الشعر، كما ظن طائفة من الناس. وانما سلك هذا المسلك فيما نعتقد ليكون أدعى الى ايثار الغريب والاستكثار منه حتى تخفي اغراض الكتاب على كثير من الناس لم يكن يحب أن يظهروا عليها. وهذا فيما نرى علة حبه للرمز والايماء وايثار الالفاظ الجافية للمعاني الغريبة. فمما لا شك فيه ان الرجل كان يود لو عمى أمر كتابه على ناس من المتشددين في الدين، حتى لا يتخذوه وسيلة الى اهدار دمه وازهاق نفسه. فلا جرم آثر من الالفاظ والاساليب ما يصعب فهمه على هؤلاء الناس. وسترى فى المقالة الخامسة أن أبا العلاء ينص على انه يصطنع الالغاز لاخفاء اغراضه على كثير ممن يتناولون كتابه. فأما أن اصطناع الالغاز في نفسه حسن أو قبيح في الدلالة على الآراء الفلسفية فشيء نعرض له في غير هذا الفصل . .

٤

أكثر اللزوميات متين اللفظ فخم الاسلوب، وقليل منها السهل الرقيق، والاصطلاحات العلمية منبثة فيها بغير حساب، حتى أنه في قصيدة واحدة استعار من علماء الشعر والصرف والعروض والفقه فقال :

مالي غدوت كقاف رؤبة قيدت في الدهر لم يقدر لها اجراؤها

اشار الي قافية رؤبة التى يقول فيها

وقاتم الاعماق خاوي المخترق مشتبه الاعلام لماع الخفق

وقال:

أعلمت علة قال وهى قديمة أعيا الأطبة كلهم إبراؤها

فاستعار من علماء التصريف وقال :

واذا النفوس تجاوزت أقدارها حدو البعوض تغيرت سجراؤها

كصحيحة الاوزان زادتها القوي حرفاً فبان لسامع نكراؤها

فاستعار من أصحاب العروض. وقال :

ووجدت دنيانا تشابه طامساً لا تستقيم لناكح أقراؤها

فاستعار من الفقهاء. وقد استعار في قصيدة أخرى من علماء القافية فقال:

وكأنما هذا الزمان قصيدة ما اضطر شاعرها الى ايطائها

والعروض في اللزوميات كثير لا يخلو منه فصل من الكتاب. وكذلك القافية والنحو والصرف . وذلك يدل على شدة تأثير الدرس اللغوي في ملكته الشعريه . والعجيب انك تلقي في هذه الاصطلاحات المستعارة تشبيهات صحيحة جيدة ، مع انها في أنفسها أبعد ما تكون من ظرف الشعراء . أما الاصطلاحات الفلسفية فليس لنا أن ندل على انتشارها في الكتاب، لان ذلك حقها الفطري. اذ الفلسفة هى المقصودة بتأليف الكتاب . ولأبي العلاء في

اللزوميات خصائص ليست في غيره : فمنها سلوكه في الشعر مسلك المؤلفين في النثر ، كأن يورد اللفظ المحتمل معنيين فيضطر الى تفسيره كقوله :

وكل أديب أي سيدعي الى الردى من الأدب لا أن الفتي يتأدب

وقوله :

نوديت ألويت فانزل لا يراد أتى سيري لوى الرمل بل للنبت الواء

وهذا في اللزوميات كثير ، والبديع منتشر في اللزوميات محتكم فيها . ولكن أبا العلاء اختار في استعمال الجناس أسلوباً يوشك أن يكون مقصوراً عليه : ذلك أن يعقد المجانسة بين أول كلمة في البيت وآخر كلمة منه في جملة القصيدة أو اكثرها كقوله :

أتران من خير وشر لنا ويلحق التثريب أرانا
عمران مرّا لكبير ولا يترك للدامر عمرانا

ومثل ذلك كثير . والامثال السائرة في اللزوميات أكثر من أن يحصيها العد . وكثرتها معقولة في كتاب حظ الاخلاق منه عظيم . ولأبي العلاء نوع من الشعر في اللزوميات ذهب فيه مذهب مناجاة الحيوان . فحاور الديك ، والحمامة ، والذئب ، والشاة ، والجمل وهذا النوع من شعره عذب حلو يفيض رحمة ورقة

٥

لم يوضع اللزوميات في وقت معروف ولكنه نظم في الطور الثالث من غير شك . ومن قصائده مايعين التاريخ لنا وقتها كالتي نظمها في استيلاء صالح على حلب وفي حصاره للمعرة ونحو ذلك

كلمة عامة في شعره

١

الآن وقد فرغنا من الوصف الخاص لشعر أبي العلاء ينبغي أن نفي بما وعدنا به من الوصف العام لهذا الشعر ، فنذكر خصائصه التي تميزه من غيره : فأول هذه الخصائص غموض الأغراض ، وذلك ظاهر في سقط الزند والدرعيات واللزوميات جميعاً . فانك تقرأ القصيدة من شعر أبي العلاء ، وقد فهمت الفاظها المفردة فلا تكاد تفهم معانيها حتى تعني بتفهمها عناية خاصة . ولئن صح ان هذا الغموض مقصود في اللزوميات فلا شك في انه غير مقصود في سقط الزند . أن مصدره شيء في نفس الشاعر . ولسنا في حاجة الى أن نبحث عن هذا الشيء بعد ما بينه لنا أبو العلاء في قوله « انه وحشي الغريزة انسي الولادة » . فهذه الغريزة الوحشية يستحيل أن يصدر عنها انسى الشعر . وكما أن صاحبها غريب الاطوار فشعره وآثاره الادبية

ينبغي أن تكون مثله . على ان هذه الغريزة الوحشية لم يشتد تأثيرها في شعر الرجل الا بعد ان اعتزل الناس ، وأخذ نفسه بهذا القانون الصارم الذي قدمنا وصفه. فأعان هذه الغريزة على وحشيتها واشتداد آثارها

٢

أما في طوره الثاني فلم يبلغ الغموض من القوة ما بلغه في الطور الثالث . وذلك لان أبا العلاء كان شديد الحرص فيه على التقليد والاحتذاء ، وعلى أن يتصل في شعره بأهل عصره . ومن هنا ظهر روح المتنبي في أشعار هذا الطور ، حتى انك لتقرأ لاميته التي مطلعها :

« ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل »

فيخيل اليك أنك انما تقرأ في ديوان المتنبي . على أن أبا العلاء قد تأثر بغير المتنبي من الشعراء ، فتكاد تلمح ابن الرومي في نونيته التي مطلعها :

عللاني فان بيض الاماني فنيت والظلام ليس بفاني

ومصدر ذلك شدة عنايته بالشعر العباسي درساً وتحصيلا ، فسترى انه شرح ديوان البحتري والمتنبي وأبي تمام

٣

والمعاوم الفلسفية تأثير ظاهر في شعر أبي العلاء غير اللزوميات، فانك تجده في سقط الزند وفي الدرعيات شديد الحرص على القصد في الالفاظ والمعانى ، وعلى تحقيق خواطره الشعرية تحقيقاً يشتد أحياناً حتى يملكه الاصطلاح العلمي فيقول:

مقيم النصل في طرفي نقيض يكون تباين منه اشتكالا
تبين فوقه ضحضاح ماء وتبصر فيه للنار اشتعالا

ويقول :

والكبر والحمد ضدان اتفاقهما مثل اتفاق فتاء السن والكبر

فقوله في طرفي نقيض، وضدان : انما هو من الفاظ المنطق ، وكذلك التباين والاشتكال

٤

ولابي العلاء في أشعار الطور الاول والثاني الفاظ وأساليب جاوز فيها المقيس من قواعد النحو كاستعماله هأنا من غير اسم الاشارة، وانما يستعمل معه لان ها التنبيه لا تدخل على الضمير منفرداً وذلك في قوله :

« فهأنا لا أخون ولا أخان »

ومصدر هذا الخطأ انما هو تقليده للمتنبي الذى كان يثق بطبعه

ولا يتقيد بقواعد النحو فلما كان الطور الثالث من أطوار أبي العلاء حرص أشد الحرص على تأثر الاقدمين في نظمهم فأصبح شعره من الصحة بحيث يبلغ منزلة الاستشهاد به

٥

وقد بينا ان الشعر الجيد حقاً لأبي العلاء انما هو شعر الطور الثالث ، لان شخصية الشاعر وعواطفه تظهر فيه ،

تكاد العاطفة الدينية لا تظهر في سقط الزند ، بل ربما نم هذا الكتاب على الشاعر بضعف الاثر الديني في شبيبته، وانه لا يتخذ هذا الاثر الا لوناظاهراً . وليس حظ الدين من سقط الزند بأكثر من حظه في الدرعيات ، أي انه لا يكاد يوجد ولا يحس . فأما اللزومات فبيان الاثر الديني فيها يتصل بغير هذا الفصل

٦

من هنا يظهر ان أبا العلاء قد كان شاعراً كشعراء عصره في الطور الثاني . ثم أصبح في الطور الثالث متميزاً في نفسه بخصائصه التي قدمناها . فمن الحق أنه قلد المتنبي ولكن من الحق أن هذا التقليد قد كان في عصر الشبيبة وحده . ولقد يزعم أناس أن أبا العلاء ليس الا صورة من صور المتنبي ، وهو وهم مصدره قلة الدرس الصحيح . فان أبا العلاء كما قدمنا شديد الاعتراف بشخصيته قليل الفناء في غيره ، فاذا

شئنا أن نقارن بينه وبين المتنبي كانت الفروق بينهما ظاهرة واضحة.

٧

فالمتنبي واضح اللفظ ناصع الاسلوب وأبو العلاء غامضهما غموضاً ما والمتنبي حكيم ينتحل الحكمة ويتكلف الفلسفة، وأبو العلاء حكيم حقاً وفيلسوف لا يعرف التكلف ولا الانتحال، والمتنبي متكسب بشعره، وأبو العلاء لم يذق لشعره ثمرة مادية في حياته. والمتنبي على رفعة قدره وعزة نفسه محب للدنيا متهالك عليها، قد مدح الملوك والامراء والوزراء لنيل الثروة، أو الامارة. وأبو العلاء مبغض للدنيا زاهد فيها مزدر لطلابها. ولقد ظل أبو الطيب يكدح طول حياته في طلب الدنيا حتى قتلته، بينما ظلت الدنيا تكدح في طلب أبي العلاء حتى قتلها.

هذه فروق ظاهرة بين الرجلين في سيرتهما وأخلاقهما، ولها الاثر العظيم في شعرهما. ولقد كان المتنبي متكبراً تياهاً، وكان مع كبره وتيهه لا يأنف أن يرتزق بالشعر. أما أبو العلاء فكان متواضعاً، وكان مع تواضعه يأنف أن يكون لاحد عليه فضل. فحب المال والتماسه من الملوك والامراء اندفع بالمتنبي الى الكذب والمين، وجعل حكمته صنعة وفلسفته شركا لاصطياد الاموال. والاستهانة بأمر الدنيا جعلت أبا العلاء شديد الحرص على الصدق، عظيم الحذر من انتحال الزور. فكانت حكمته صادقة وفلسفته فطرية. ومن هنا استجاب المتنبي

الى الخيال ، وامتنع أبو العلاء عليه . وكان المتنبي غنياً شحيحاً، وكان أبو العلاء فقيراً كريماً . وكان المتنبي شديد الحرية في اللغة لايحفل بالقياس،ولا يؤبه للقواعد ولا يعنيه أن يتأثر الطريقة القديمة ، بل يبيح لنفسه أن يخترع الاساليب، وأن يخالف القواعد الى النظم حتى كثر قول الناس فيه وطعنهم عليه . وقد سلك أبو العلاء طريق المتنبي في الطور الثاني من حياته ثم بدا له فعدل عنه واتخذ طريق الجاهليين والاسلاميين من العرب ،غير مفرط في حظه من أساليب عصره، فقد اصطنع البديع وهو حضري مهلهل فكساه ثوباً من ثياب البادية. وعلى الجملة كان شعر أبي العلاء في عصره كالذي يسميه الفرنج الآن كلاسيك (*Classique*) وكان شعر المتنبي يوشك أن يكون حراً لولا انه التزم طريقة العرب في الوزن والقافية. ولعل الدرس اللغوي الذي لزم أبا العلاء بمعرة النعمان تسعاً وأربعين سنة، هو الذي جعله اعرابي الشعر والنثر،وان ابت فلسفته ان تسبغ على شعره ثوب السذاجة البدوية. فاليت من الشعر يقوله الاعرابي متين اللفظ والاسلوب ساذج المعنى قليل التركيب. أما المعري وان له من البداة متانة اللفظ والاسلوب . فاما سذاجة المعنى وقلة تركيبه فليس لابي العلاء منهما شيء . ومن المعقول ألا يكون له منهما حظ ، فان الدرس اللغوي قادر على اصلاح ملكته لاعلى مسخها . وليس من

الممكن أن ينتج الدربس المتعمق في اللغة والفلسفة جميعا الا هذا المزاج: للفلسفة المعنى والتصور، وللغة اللفظ والاسلوب. والمتنبي وان كثرت في شعره الالفاظ الفلسفية لا يبلغ مبلغ أبي العلاء في كثرة الاصطلاحات العلمية من كل فن. وليس شيء من ذلك لاحدهما بعيب. ولكنه يدل على أن أبا العلاء كان أكثر من أبي الطيب تحصيلا للعلم واستظهاراً لفنونه واحتكاماً في الفاظه واصطلاحاته. وتصرف أبي العلاء باصطلاحات العلم هذا النحو من التصرف كسب شعره ظرفاً ليس لابي الطيب. وكلا الشاعرين عفيف اللفظ لا يعرض للفحش ولا للخناء الا ان للمتنبي كثيراً من النسيب الجميل وشيئاً من الهجاء المقذع. أما أبو العلاء فلم يكن له من هذا الفن شيء. وأبو الطيب فخور محسن للفخر وأبو العلاء دون منزلته في هذا الفن أيضاً. وأبو الطيب مداح مجيد وأبو العلاء حين كره الخيال لم يحسن هذا الفن. وكلا الشاعرين يجيد الرثاء، الا ان ابا العلاء على اقلاله في هذا الفن احذق من المتنبي فيه

٨

وليس في شعراء العرب كافة من يشارك أبا العلاء في خصال امتاز بها: منها انه أحدث فناً في الشعر لم يعرفه الناس من قبل، وهو الشعر الفلسفي الذي وضع فيه كتاب اللزوميات، وربما خيل الى الناس ان الشعر الفلسفي قديم عند العرب نظم فيه

زهير ، وعدي بن زيد، وابو العتاهية وابو الطيب ، لانهم طرقوا فنون الحكمة والزهد وانواع العبرة والعظة . ولكن هذا النوع من الشعر غير الذي انشأه ابو العلاء . انما انشأ ابو العلاء فناً من الشعر استنزل الفلسفة من منزلتها العلمية المقصورة على الكتب والمدارس الى حيث تسلك طريق الشعر الى قلوب الناس . نريد بالفلسفة اشمل معانيها سواء كانت فلسفة آلهية او خلقية او رياضية او طبعية . لا فرق بين هذه الفنون في شعر ابي العلاء، فقد اخذ من كل فن بنصيب .

فأما الشعراء الذين سبقت اليهم الاشارة فأقسام ثلاثة : قسم لم يستق حكمته الا من الفطرة وتجارب الحياة الساذجة ، ومن هؤلاء زهير . وقسم يستقي حكمته من الدين، ومن هؤلاء عدي ابن زيد، فانه استقى حكمته من الدين المسيحي اذ كان عبادياً متنصراً ، وابو العتاهية، فانه استقي حكمته من الاسلام . وقسم استقى حكمته من الفلسفة الخلقية، كأبي الطيب، فان فلسفته ليست الا تلك الكلمات التي كان يقولها الفلاسفة ويكتبونها بمعرض التحدث عن الاخلاق . أما ابو العلاء فقد عمد بشعره الى اثبات النظريات الفلسفية في الطبيعة والرياضة والألوهية والاخلاق، فهو يقول مثلا في اثبات ان الابعاد لا تتناهى، وهي مسألة من مسائل العلم الطبعي

ولو طار جبريل بقية عمره
من الدهر ماأستطاع الخروج من الدهر

ويقول في تعريف الزمان وهى من مسائل العلم الطبعى ايضاً

الساع آنية الحوادث ماحوت لم يبد الا بعد كشف غطائها
وكأنما هذا الزمان قصيدة ما اضطر شاعرها الى ايطائها

ويقول في علم النفس حين أراد أن يبين صدور الشهوات عن القلب :

القلب كالماء والاهواء طافية عليه مثل حباب الماء في الماء

ويقول حين أراد أن يقرر مذهب المعتزلة في وجوب الاذعان لحكم العقل خاصة

كذب الناس لا امام سوى العقـ ـل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما أطعته جاب الرحمـــة عند المسير والارساء

ويقول في الرد على أصحاب الديانات فيما يثبتون من تنزيه الله عن الزمان والمكان . وقد سلك في هذه الابيات طريق المتكلمين في المناظرة :

قلتم لنا خالق قديم قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا زمان ولا مكان ألا فقولوا
هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

ويقول في الاستدلال على نفى البعث بمذهب أرسطاليس في قدم العالم :

ان صح ماقال رسطاليس من قدم
وهب من مات لم يجمعهم الفلك

فهذا النحو من الشعر لم يعرفه العرب قبل أبي العلاء . فان قال قائل ان ابن سينا قد نظم قصيدته في النفس فقال :

«هبطت اليك من المحل الارفع» . قلنا: فان ابن سينا لم يضع ديوانا شعريا أحاط فيه بفنون الفلسفة. وتلك خاصة لم يشارك أبا العلاء فيها أحد ممن قبله ولا بعده . ليس يعنينا الآن أن تكون هذه الخاصة محمودة أو مرذولة. فقد أخذنا أنفسنا في صدر هذا الكتاب بأن نقرر الاشياء كما هي، لا نحمدها ولا نذمها، اذ ليس الحمد والذم من عمل المؤرخين، ولا مما يتناوله فن التاريخ

٩

مرجليوث اجتهد فى أن يقارن بين أبى العلاء وأبي العتاهية في هذا الشعر الفلسفي، فزعم أن بين الرجلين تشابها، وتابعه على ذلك سلمون . ولقد كنا نحب ان نجتهد في بيان هذا الوهم الذى وقع فيه هذان العالمان، لولا أن دائرة المعارف الاسلامية التي يكتبها المستشرقون سبقت الى هذا، فجعلت قياس ابي العلاء الى ابى العتاهية ظلماً وحيفاً،

اذ كان ابو العتاهية يستقى من الدين ويتقيد به ، وكان ابو العلاء يستقى من الفلسفة ولا يتقيد بالدين . وهذا الفرق ظاهر الاثر في شعر الرجلين. وخصلة اخري لم تلتفت اليها دائرة المعارف ، وهي أن أبا العتاهية على كثرة ما استعان بالدين في زهده الذي ملأ به ديوانه، كان فاسقاً مستهتراً بالمجون، بخلاف أبي العلاء الذي استملى الفلسفة واتهمه الناس بالزندقة والالحاد ، فانه لم يمل الى لهو ولم يذهب مذهب مجون .

هذا الفن الشعرى الفلسفى الذي انشأه أبو العلاء قد وهب اللغة العربية في اللزوميات مزاجا خاصاً يألفه اهل الجد ، ويميل اليه أصحاب الحزم : مزاج لا يعرف الباطل اليه سبيلا، ولا يملك الضعف النفسى عليه سلطانا. ثم هو مع ذلك ممثل لعواطف الشاعر تمثيلا صحيحاً . فليس ينقصه من مزايا الشعر المعروف الا الكذب وقلة الغريب

١٠

لابي العلاء خاصة أخرى وهى انه اول من افرد ديواناً خاصاً في موضوع من الموضوعات التى ألفها الشعراء. وهذا الديوان هو الدرعيات التى لم يتناول فيه الا وصف الدروع . نعم ان لابي نواس في الطرد والصيد، وفى الغلمان والخمر ، شعر لو جمع منفصلا لكان ديواناً خاصاً. وكذلك غيره من الشعراء . ولكن أبا العلاء هو الذي

سبق لي هذه الفكرة من غير ان يسبقه اليها سابق. فهذه الخصائص هي التي ميزت أبا العلاء من شعراء عصره، بل من شعراء المسلمين كافة. فلننتقل الآن من شعر ابي العلاء الى نثره.

نثره

١

لابي العلاء النثر الكثير، ولكن ما بقي لنا منه النذر اليسير، فليس لدينا من نثره الا رسائله، ورسالة الغفران، ورسالة الملائكة. على ان هذا المقدار القليل، بل شيء منه يكفي فيما نريد من درس الملكة الكتابية لابي العلاء. فان شخصيته تتمثل في نثره كما تتمثل في شعره، بحيث يكفي القليل منهما لتبين صفات الرجل ومنزلته فيهما. فالزمان وإن أضاع أكثر الآثار العلائية لم يضع شخصه، لان هذا الشخص كان خالداً بطبعه، وليس للزمان على الشيء الخالد من سبيل. فليس شخص أبي العلاء هو الذي تأثر بضياع آثاره. وانما الآداب وعلومها هي التي فقدت بضياع هذه الآثار شيئاً عظيما

لم يحفظ لنا التاريخ من نثر أبي العلاء في صباه شيئاً. ولعله لم يتكلف النثر في هذا الطور وان تكلف الشعر. وكما قسمنا شعره الى أطوار ثلاثة، فانا نقسم نثره الى طورين: أحدهما كتب في

شبيبته قبل العزلة. والثاني كتب بعدها. وليس لدينا مما كتب قبل العزلة شيء قليل، فان رسالة المنيح ورسالة الاغريض اللتين كتبهما الى الوزير المغربي ابي القاسم قد كتبتا في هذا الطور، اذ فيهما ذكر أبي الوزير والدعاء له، وهو الذي قتله الحاكم قبل سنة اربعمائة كما قدمنا. ولدينا رسائله التي كتبها ببغداد الى خاله أبي طاهر في شأن كتب السيرافي. ورسالته الى أهل المعرة قبل أن يصل اليها. فأما ما كتب بعد العزلة فكثير أيضا. وحسبك برسالة الغفران ورسالته التي كتبها الى خاله ابى القاسم في رثاء أمه، والتى كتبها اليه يعزيه عن أخيه الذي مات بدمشق، والتى أجاب بها أبا الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري وغيرها . . ونحن واصفون نثره في هذين الطورين، ثم باحثون عن خصائصه العامة، وعن الفنون التى تناولها في النثر، كما بحثنا عن ذلك في الشعر

نثره فى طور الشباب

٢

اذا كان شعر أبى العلاء في طور الشباب كثير التكلف قليل المتانة، فان نثره كذلك في هذا الطور. وانما كثر في كلامه التكلف حين حرص على اظهار التفوق والظفر بالاجادة. فكأنه يعلي عن ميله الى النبوغ

لذلك لم تخل رسائله من السجع، بل قد تقرأ الرسالة كلها فلا تظفر بجملتين غير مسجوعتين . وكذلك لم تخل رسائله من الغريب، بل لا تكاد تمر فيها بجملة خلت من لفظ غريب . وحظ المبالغة في نثر هذا الطور كحظها في شعره، وكما أن أوائل سقط الزند قد عبث بها التكلف فحال بينها وبين تمثيل عواطف الشاعر، فقد عبث التكلف برسائله أيضا، حتى ما تستطيع أن تدرس أخلاقه وميوله الفطرية فيما كتب الى ابى القاسم المغربى. وانما هى الفاظ مرصوفة، وكلمات قد قرن بعضها الى بعض، يزينها السجع، وتختلف متانة وضعفا من حين الى حين . وتظهر فيها المبالغة التى لا تألفها العادة ولا يطمئن اليها العقل فانظر الى قوله في رسالة المنيح :

«ان كان للآداب ـ اطال الله بقاء سيدنا ـ نسيم تضوع، وللذكاء نار تشرق وتلمع، فقد فغمنا على بعد الدار أرج أدبه، وحمانا الليل عناذ كأؤه بتاهبه، وحول الاسماع شفوفا غير ذاهبه وأطلع في سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربه، وذلك انا معشر أهل هذه البلدة وهب لنا شرف عظيم، وألقى الينا كتاب كريم، صدر عن حضرة السيد الحبر، ومالك اعنة النظم والنثر، قراءته نسك ، وختامه بل سائره مسك ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون»

فهل ترى فى هذا الكلام لفظاً قيما ، أو اسلوباً عذباً ، أو

أو صناعة جيدة ؟ وهل تجد الا كلفاً بالسجع ممقوتاً، وحرصاً على المبالغة مرذولا ؟ وتكلفاً هو أشبه بتعمل الاطفال، والا فما قوله : وللذكاء نار تشرق وتلمع ؟ أليس لفظ تلمع هذا قد أكره على مكانه ليؤدي حق السجع . ثم انظر الى قوله «فقد فغمنا على بعد الدار ارج أدبه ومحا الليل عنا ذكاؤه بناهبه» فان الفطرة تقتضي أن يقول « تلهب ذكائه» ولكن حب السجع اضطره الى ان يعدل له عن الفطرة الى التكلف . وكذلك قوله « ذلك انا معشر اهل هذه البلدة وهب لنا شرف عظيم والقى الينا كتاب كريم» ليس الا من بارد اللفظ، وفاتر السجع، وان عز علينا أن ننال كلام أبي العلاء بهذه المقالة ، الا انا لا نغض منه ، وانما نصف حاله،وليس قوله « السيد الحبر ومالك أعنة النظم والنثر » باقل برداً وفتوراً من سابقه

ولئن كان قد أساء في طالعة هذه الرسالة فقد أحسن بعض الاحسان في طالعة رسالة الاغريض اذ قال : « السلام عليك ـ أيتها الحكمة المغربية والالفاظ العربية ـ أي هواء رقاك واى غيث سقاك برقه كالاحريض وورقه مثل الاغريض . حللت الربوة وجللت عن الهبوة أقول لك ماقال أخو بني نمير لفتاة بني عمير :

« زكا لك صالح وخلاك ذم . وصبحك الايامن والسعود » .

احسن بعض الاحسان حين تمثل الحكمة في شخص أبي القاسم

خاطبها هذا الخطاب الرقيق ، وان كان السجع والتكلف لم يفارقاه

في هذا الطور نمت رسائل أبي العلاء بشيء لا نعرفه في سيرته، وهو الاجتهاد في التبرؤ مما يخالف رأي الجماعة ، فقد تبرأ في رسالة المنيح من مقالة الطبعيين في السحاب مرة، ومن المنجمين والفلاسفة مرة أخرى. وليس يدل ذلك الا على ان حريته العقلية لم تكن قد نضجت بعد

نعم انه كان يرى التقية كما سنثبت ذلك فى المقالة الخامسة ، ولكن تقيته كانت سلبية: أي انه كان يكني عن آرائه ولا يرد عليها

أبو العلاء ذم السجع فى رسالة المنيح اذا جاء متكلفا . والعجب انه نسى مكانه من هذا التكلف . وليس يدل ذلك الا على ان ملكته في النقد لم تكن قد نضجت أيضا

تكثر الاصطلاحات العلمية في نثر هذا الطور ، ولا سيما اصطلاحات العلوم اللغوية، فانظر الى قوله في رسالة الاغريض: «فرس الله سيدنا حتى تدغم الفاء في الهاء ،فتلك حراسة بغير انتهاء وذلك ان هذين ضدان،وعلى التضاد متباعدان . رخو وشديد وهاو وذو تصعيد،وهما في الجهر والهمس، بمنزلة غد وأمس،وجعل الله رتبته التي كالفاعل والمبتدا ،نظير الفعل في انها لا تخفض ابداً ». فانظر اليه استعار من التجويد والنحو والصرف ، على انه يمضي في ذلك حتى يستعير من العروض والقافية،وكأنه حين فقد الاحاطة بما في الارض.

والسماء من مناظر الجمال التي يستمد منها الشعراء والكتاب تشبيهم، ويؤلفون منها خيالهم، عمد الى ماوعى صدره من علوم اللغة، فاتخذ منها لتشبيهه مادة ولخياله مجالا، واتى من ذلك بالشيء الطريف، فصدق حين قال عن نفسه في سقط الزند :

وقد تعوضت من كل بمشبهه فما وجدت لأيام الصبا عوضا

على ان رسالته الى أهل المعرة تدل على انتقال غريب في ملكته الكتابية، فانها كانت في آخر طور الشباب واول طور العزلة الذي تغيرت فيه حياة الكاتب تغيراً ظاهرا

نثره في طور العزلة

٣

يهرك من رسالته الى اهل المعرة حين يقرأها ما ترى فيها من تمثيل شخص الكاتب وعواطفه، حتى يخيل اليك حين تقرأها انك انما تسمع الفاظها من كاتبها، وترى شخصه بين سطورها، وكأنها صورة شمسية تمثل هذا القلب الذي ملكه الحزن على فقد الاحباء، وفراق الاخلاء، واصفار اليد من المال، وقيام العقبات بينه وبين دور العلم، وانصرافه عن لذات الحياة، وتجلده على آلامها. كل ذلك تشف عنه هذه الرسالة ولو ان الفاظها خشنة نابية

مصدر هذا ان الالفاظ ليست هي التي تناجيك، وانما تناجيك

من الكاتب نفس قد طرحت التصنع ، وخلعت ثوب الرياء ، وبدت لك كما هي ، غير متكلفة اظهار فضيلة ، ولا محتالة في اخفاء نقيصة. فهذا هو أظهر الفروق بين نثر أبي العلاء في طوريه ، تجده في كل ما كتب بعد رجوعه من بغداد . وقد بينا في المقالة الثانية مقدار ما يمثله رثاؤه لأمه من ذلك . ولقد كان يحرص أبو العلاء أشد الحرص على أن يخفي نفسه على القاريء في بعض رسائله ولكن شخصه كان يأبى الا الظهور

كان يلقي بينه وبين القاريء أستاراً صفيقة من غريب اللفظ وحجباً كثيفة من ثقيل السجع ، ويقيم حوله أسواراً منيعة من المباحث اللغوية والصور الدينية ، ولكن عواطفه الحادة تأبى الا أن تخترق هذه الموانع كافة ، لتصل الى قلب القاريء فتترك فيه ندوباً: لذعات الجمر أخف منها وقعاً وأهون منها احتمالا

ذلك حاله في رسالة الغفران ، فكم اتخذ حوله من الشعراء الجاهليين جنوداً يذودون عنه ويناضلون من دونه ، وكم أسبغ على نفسه من علوم اللغة وآدابها دروعاً تعصمه من وصمة الالحاد ؟

وكم ضحى من زنادقة العباسيين ضحايا ليعلن انه مسلم . ولكن هذا الكيد كله لم يزد الناس الا علما به واتهاماً له ، حتى قال الذهبي: انه صاحب الزندقة المأثورة ، واستدل على ذلك برسالة الغفران

أبو العلاء هو أظهر الكتاب المسلمين شخصية وأوضحهم عاطفة في نثره ، ذلك لانه لم يستطع أن يكون منافقاً، ولم يوفق الى تكلف الحيلة في اخفاء نفسه، وان وفق التوفيق كله في تكلف السجع والغريب

لقد حكم قانونه الفلسفي الصارم في نثره كما حكمه فى شعره وحياته ، فالتزم في الكتابة مالا يلزم من إيثار الغريب وتصريف اصطلاحات العلم في التعبير عن العواطف والدلالة على الميول ، فهو يؤدي كثيراً من الاغراض بتلك الضروب العروضية، التى ما أراد الخليل بها الا أن تدل على مجرد الأوزان والتفاعيل

من أظهر خصال أبى العلاء في نثر هذا الطور حرصه على الاستقصاء التام، بحيث اذا عرض لمسألة لغوية أو نحوية في طريقه لم يستطع أن ينصرف عنها حتى يستقصيها ، ولقد اشتد ضيق أهل الجنة وأهل النار من الشعراء والرواة به، لكثرة ما ألح عليهم فى النقد والمناظرة، حتى نفد صبر ابليس الذي لا ينفد صبره ، فاغرى الزبانية أن يقذفوه فى النار ، وحتي أوقع فنوناً من الملاحاة بين أهل الجنة الذين لا يعرف الخلاف اليهم سبيلا

هذا الاستقصاء يرضي العالم المحقق ، ولكنه يسئم القاريء المتعجل ، لذلك كان الملل الى نفس القاريء في نثر أبي العلاء سريعاً،

الا انك اذا درست الرجل وفهمت روحه وعواطفه ، أصبح كلفك بعشرته في نثره وشعره ألزم لك من ظلك ، وهـذه من أخص الصفات التى امتاز بها أبو العلاء

أما المبالغة فقد قلت ، ولـكنها لم تمنح . على ان أبا العلاء قد اتخذ لهذه المبالغة دواء حسناً ، فما تجد مبالغة في نثره الا وقد أحاطها من الالفاظ بما يكف من غلوائها . فتراه يستعمل كاد مرة ولو مرة أخرى

قلنا أن الغريب والسجع يلزمان أبا العلاء في كتابته ، ولـكن من الحق علينا أن نقسم نثر أبي العلاء قسمين : احدهما ما يذهب فيه مذهب الانشاء والتنميق ، وهذا لا بد فيه من السجع والغريب . والآخر ما يذهب فيه مذهب القصص التاريخى أو العلمى ، وهذا يقل فيه السجع والغريب ، حتى لا تكاد تعثر بهما . لذلك انقسمت رسالة الغفران الى قسمين : فاما ما كان من وصف الجنة ونعيمها ، والنار وجحيمها ، فالسجع فيه لازم ، والغريب فيـه موفور ، وأما ما وصف به الزنادقة ، فسهل مرسل ، يسيغه السمع ، ولا ينبو عنه الطبع . وكذلك انقسمت رسالته التي عزي بها خاله أبا القاسم عن أخيه هذين القسمين : فاما ما اشتمل على مصارع الانبياء ، والملوك ، وأعلام الناس ، فسائغ اللفظ ، وان التزم فيه السجع . وأما ما وصفت به مصارع الحيوان ، فان تصل الى فهمه الا بعد العناء الشديد

فنونه النثرية

١

طرق أبو العلاء بنثره المدح ، والعزاء ، والوصف ، ولم يطرق الفخر ، ولا الهجاء ، ولا غيرهما من الفنون التي يطرقها الكتاب ، فأما المدح ، فقد كتب فيه : رسالة المنيح ، ورسالة الاغريض ، وعرض له في غير هاتين الرسالتين

والمجاملة في مدح أبي العلاء النثري ظاهرة ، وكثيراً ما اتقاها بالمحالاوت اللفظية ، والاستطراد اللغوي . وأما العزاء فقد كتب فيه رسالتين نابهتين ، رثى باحداهما أمه ، وقد قدمنا وصفها ، ورثى بالاخرى خاله ، ولكنها لاتدل على شيء من الحزن والاسف ، وانما هي تسلية وتعزية ، وقدسلك فيها الكاتب طريقتين : احداهما طريق القصص ، فألم بمصارع الانبياء : من العرب وبني اسرائيل . وبعواقب الملوك : من سبأ وحمير ، ومن المناذرة والغسانية والاكاسرة . وبمهالك الاعلام من فرسان العرب واجوادها . ثم ذهب مذهب أبي ذؤيب الهذلي في عينيته : من وصف مصارع الحيوان ، فتتبع الآساد والفيلة الى الذرات والنمال ، ولم يدع من الحيوان الذي ألفه الناس في الارض والسماء ، وحشياً ولا إنسياً ،

إلا ذكر مصرعه مع التفصيل الشديد . وأما الوصف فلم تخل منه رسالة من رسائل أبي العلاء . وشأنه في الوصف النثري ، كشأنه في الوصف الشعري : أي انه يستمد معانيه مما يحفظ أكثر من استمدادها مما يحس . وليس وصفه لمصارع الحيوان إلا خلاصة ماقال الشعراء الجاهليون والاسلاميون فيها ، حتى لقد لخص في رثائه لخاله عينية أبي ذؤيب ، ومعلقة لبيد ، وأكثر شعر الشماخ بن ضرار

النفر

٢

لابي العلاء في النقد ملكة قوية كونتها له دراسته للحياة وأخلاق الناس ، وتعمقه في الدرس العلمي . وهذا النقد ينقسم قسمين : أحدهما النقد العلمي والادبي ، وتمثله رسالة بعث بها الى أبي الحسن أحمد بن عثمان النكتي البصري ينقد فيها شيئاً من شعره ، فيمزج النقد بالسخرية مزجاً ظريفاً ولكنه لذاع . والثاني نقد العادات والأخلاق ومألوف الناس ، وتمثله رسالة الغفران ، فقد نقد فيها كثيراً من مألوف الناس . ولكنه سلك الى هذا النقد طريق السخرية ، فكان على خصومه شديد الوقع ، وخاز اللذع ، لا يفوقه في ذلك الا بديع الزمان الهمذاني في رسائله . وإنما سبق البديع الى

هذا الفن لانه ترك الاحتشام والوقار ، ولم يأنف من الفاظ يستحي أبو العلاء أن يفكر فيها

السخرية

٣

من قرأ رسالة الغفران ، وأراد أن يفقه معناها حق الفقه ، احتاج الى دقة ملاحظة ،وحذق فطنة ، وبعد نظر ، ونور بصيرة ، والى أن يدرس روح الكاتب ، فيحسن درسه ، ويعرف أغراضه فاذا لم يوفق الى ذلك مرت به رسالة الغفران وهو يظنها من أقوم كتب الدين

ذلك أن أبا العلاء يسلك في هذه الرسالة الى النقد مسلكاً خفياً ، تكاد لا تبلغه الظنون ، ولولا أن مؤرخيه قد كانوا يسيئون الظن به ، لما اهتدوا الى مافي رسالة الغفران من النقد ، على أنهم لم يفهموا منه الا الظاهر الذي يلمس ، والصريح الذي لا يشك فيه : كالاشعار الاباحية التي رواها عن بعض الزنادقة . فأما نقده الخاص فقلما فطنوا له . ولسنا نشك في أن علي بن منصور بن قارح الذي كتبت اليه هذه الرسالة قد كان شديد الزندقة ، أو شديد الغفلة .

فان أبا العلاء لا يكتب بهذه الرسالة الا وهو واثق منه باحدى الخصلتين . وتدلنا رسالة الغفران على ان هذا الرجل كان معاقراً للخمر

متهالكا عليها ، حتى ألح عليه أبو العلاء في أن يتوب . ولسنا الآن بمعرض الكلام على رسالة الغفران من حيث ما بينها وبين دين ابى العلاء من صلة . وانما نريد ان نبحث عنها من وجهين : أحدهما السخرية التي تشتمل عليها . والآخر الخيال الذي عمل في تأليفها

فأما السخرية فحسبك أن تسمع خلاصة القصص الطويل الذي ساقه أبو العلاء لدخول على بن قارح في الجنة . قام هذا الرجل من قبره يوم البعث ، فلبث في الموقف أمداً طويلاً ، حتى أعياه الحر والظمأ وهو واثق بدخول الجنة ، لأن معه صك التوبة ، فلم يفهم معنى هذا الانتظار ، ففكر في أن يخدع سدنة الجنة بما كان يخدع به الناس في الدنيا من الشعر ، فأنشأ القصائد الطوال في مدح رضوان ، وأنشده اياه ، فلم يفهم منها شيئاً ، لانه لا يتكلم العربية . فلما عي على ابن قارح بأمره ، سأله ما بالك لم تحفل بقصائدي وقد كان يحفل بها ملوك الدنيا ؟ ثم كانت بينهما محاورة آيست على بن قارح من رضوان ، فانتقل الى سادن آخر يقال له زفر ، واعاد معه القصة نفسها . ولكن هذا الخازن نبهه الى ان يتشفع بالنبي في أمره ، فاجتهد حتى وصل الى حمزة ، فتوسل به الى علىّ ، وانه لفي طريقه الى على وقد كاد ان يظهر كتاب توبته ، وانه لفى ذلك ، واذا شيخه أبو على الفارسى قد ضاق ذرعه بطائفة من شعراء البادية يخاصمونه فيما تأول من كلامهم ،

فنسي التوبة وأمر الشفاعة، وذهب الى استاذه فذاد عنه أولئك الاعراب، ثم رجع الى علي وقد فقد كتاب التوبة ، ولكن علياً قد هون عليه الامر ، وطلب منه شاهداً على التوبة ، فاستشهد بقاض من قضاة حلب ، وقبل علي شهادته . ولكن سقاه من الحوض وأيأسه من دخول الجنة قبل الحساب، فلم ير الا الحيلة ، فذهب الى شاب من بني هاشم فقال : لقد الفت في الدنيا كتباً كثيرة كنت أبدأها وأختمها بالصلاة على النبي وعترته ، فحقت لي بذلكم عليكم حرمة ، ولي اليكم حاجة ، قالوا : وما هي؟ قال : اذا خرجت أمكم الزهراء من الجنة لزيارة أبيها فتوسلوا بها اليه في ان يأذن بدخولي الجنة . فقبلوا منه ، ثم نادى مناد : يا أهل الموقف ، غضوا أبصاركم حتى تمر الزهراء . ومرت فاطمة فسلمت على ابنائها ، ورغبوا اليها في أمر صاحبهم ، فقبلت . وأشارت اليه ان يتبعها ، فتعلق بركاب ابراهيم ابن النبي ، ولم تكن خيلهم تمشي على الارض لكثرة الزحام ، انما كانت تطير في الهواء

وصلوا الى النبي وشفع فيه ، وعاد مع فاطمة واخوتها ليدخل الجنة ، فلما بلغ الصراط لم يستطع ان يتقدم عليه قيد اصبع ، فبعثت اليه الزهراء جارية تعينه، فأخذت الجارية كلما اسندته من ناحية مال من الاخرى ، حتى أعياه ذلك واعياها فقال لها: يا هذه ، ان أردت سلامتي فاستعملي معي قول القائل في الدار العاجلة : ست ان أعياك أمرى

فاحملني زقفونه ، فقالت : وما زقفونه . . . ؟ قال: ان يطرح الانسان يديه على كتفي الآخر ، ويمسك بيديه ، ويحمله وبطنه الى ظهره ، أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفر طاب

صلحت حالتي الي الخلف حتى صرت أمشي الى الورا زقفونه

فقالت ماسمعت بزقفونه ، ولا الجحجلول ، ولا كفر طاب، الا الساعة ، فتحمله وتجوز كالبرق الخاطف ، فلما جاز قالت الزهراء عليها السلام : قد وهبنا لك هـذه الجارية ، فخذها كي تخدمك في الجنان . فلما صار الى باب الجنة قال له رضوان : هل معك من جواز : فقال ؟ لا ، فقال: لا سبيل للدخول الا به ، فمي بالامر وعلى باب الجنة من داخل شجرة صفصاف ، فقال اعطني ورقة من هذه الصفصافة حتى أرجع الى الموقف فآخذ عليها جوازاً ، فقال لا أخرج شيئاً من الجنة الا باذن من العلي الاعلى تقدس وتبارك ، فلما ضجر بالنازلة قال : انا لله وإنا اليـه راجعون ، لو أن للامير ابي المرجى خازناً مثلك ، ماوصلت أنا ولا غيري الى درهم من خزانته . والتفت ابراهيم صلى الله عليـه فرآه وقد تخلف عنه فرجع اليه فجذبه جذبة حصله بها في الجنة .

فهذه الصور التي تمثلها هذه القصة الصغيرة تبين مقدار ما تشتمل عليه رسالة الغفران من السخرية الخفية ، وأمثالها كثير

الخيال

٤

لم يخترع أبو العلاء في هذه الرسالة شيئاً كثيراً . انما وردت أقاصيص الوعاظ بأكثر مافيها . فاذا كان في الرسالة شيء فهو التنسيق والسخرية،على انه قد أخطأ مواضع من الخيال كان حقه ألا يخطئها ، فان ابن قارح في أحد مجالسه جعل كل ماتمني لقاء رجل من أهل الجنة،نظر فاذا هو بين يديه فلم يكن فرق بين سكان الجنة وبين أثاثها وفاكهتها في ذلك ، وكذلك أوقع الخلاف والمهاترة بين أهل الجنه ، حتى كادت تقع الملاكمة بين ابن قارح وبين رؤبة،لولا ان توسط العجاج

مهارته اللغوية

٥

ولقد مرّ ابن قارح بمدائن الجن في الفردوس . فزارهم وسمع من أشعارهم ، فاذا أشعار بلغت من غرابة اللفظ والاسلوب مبلغاً يخيل الى سامعها أنه كلام الجنة حقاً . وما نشك في ان ابا العلاء هو الذى انتحل هذه الاشعار . أما معانيها فلا تتجاوز ماروي في الاخبار الدينية من احوال الجن. والقول المفصل في رسالة الغفران يحتاج الى كتاب خاص نرجو أن نوفق اليه.وحسبنا ان نقرر الآن أن هذه

الرسالة هي اول قصة خيالية عند العرب . والفرنج يشبهونها بكتاب دانتي الطلياني الذي سماه *La Comedie dévine* وكتاب ملتن الانجليزي الذي سماه الجنة الضائعة . وعندنا ان لقصة المعراج صلة بهذه الاقاصيص

خصائص النثر به

٦

يختص نثر أبي العلاء بما اختص به شعره من الغموض وكثرة الغريب ، لا يتصل بنثر عصره الا بصلة واحدة ، هي السجع الملتزم. وللأمثال في نثر أبي العلاء حظ عظيم ، حتى انك لتجزم بأن أبا العلاء أكثر الكتاب للأمثال استعمالا

تتصف آداب ابي العلاء عامة بوصفين لازمين : أحدهما العفة المطلقة ، فأنك لا تجد في شعره ولا نثره كلمة من تلك الكلمات القبيحة التي شاعت في عصره وحفظتها يتيمة الدهر . وتعليل ذلك لا يحتاج إلى اطالة القول

الثاني ، تأثير علم النجوم العربي فيها تأثيراً ظاهراً يمثله كتاب اللزوميات ، وهذه التشبيهات الكثيرة والاقاصيص المنتشرة في سقط الزند والرسائل .

واذ قد فرغنا من درس الآداب العلائية فلننتقل الى علم ابي العلاء